مدخل للفلسفة الإسلامية

بقلم

أ.د/ محمد رشاد عبد العزيز محمود

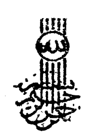
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

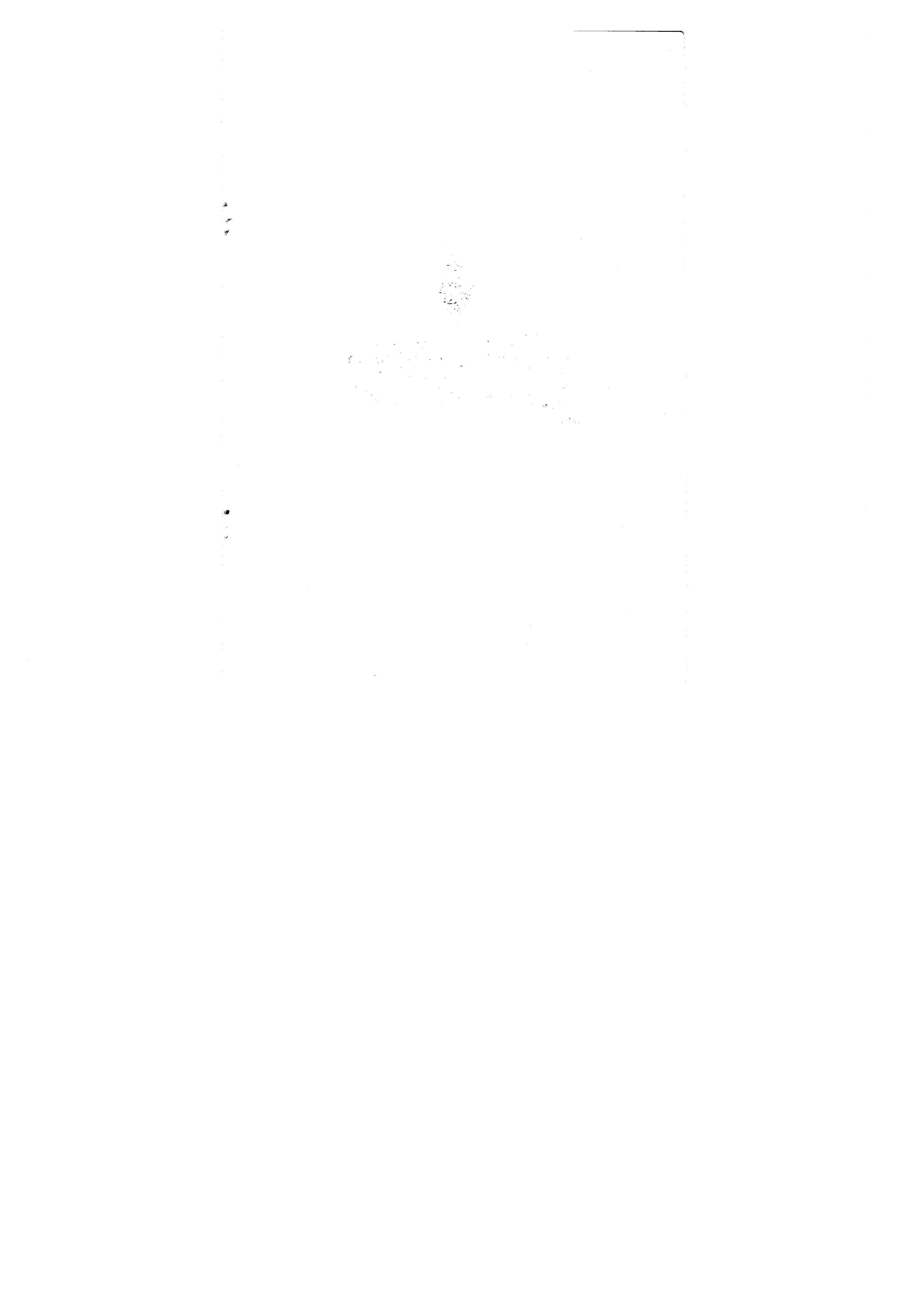
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار العاصم للطباعة
سامي عبد اللطيف وأولاده
منشية ناصر — ش نبيل الوقاد — بجوار صيدلية الفتح



"يرفع الله الذين آمنوا منكم
والذين أوتوا العلم درجات"

(صدق الله العظيم)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على هادى البشرية إلى يوم الدين ، سيدنا محمد النبي الأمى الذى جاء على فترة من الرسل لينقذ الدنيا قاطبة من الضلال إلى الهدى ومن الظلام إلى النور . ويهدى الانسانية إلى صراط الله العزيز الحميد ـ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد ؟

فتاريخ البشر تعاقب مطرد لحضارات إنسانية تختلف باختلاف الأجناس والألوان ، مقيدة بقيود الزمان والمكان ، وتاريخ الفكر الإنسانى نزوع دائم وسعى متواصل لتحقيق حضارة عالية مطلقة يعيش الناس جميعا تحت ظلها الوارف فى سعادة وطمأنينة ، والحضارات البشرية المتعددة مراحل ذلك النزوع ومحطات ذلك السعى تمهد السبيل وتعد العدة للحضارة المنشودة ، لتحقيق الأمل الذى طالما داعب خيال الفلاسفة والمصلحين هؤلاء الذين أدركوا ـ منذ تطلع الإنسان إلى حياة أفضل ـ أن هذه الحضارة هى النبع الذى تصب فيه جميع الروافد أو قل : إنها عصارة الحضارات البشرية فى تعانقها وامتزاجاتها نتيجة تفاعلها الواعى واللاواعى .

ومن البديهى أن يشارك الفكر الاسلامى فى وضع لبنات فى هذا

الصرح العالمي وأن يبذل فلاسفة الاسلام – مع المفكرين الآخرين – أعظم جهد وأكبر مشقة لسلامة هذا البناء ومن البديهي أيضا أن تكون لهم فلسفة تعبر عن آرائهم وتبين أفكارهم وتحمل الحلول التي وضعوها لمشكلاتهم وتعكس ما في باطن مجتمعهم من آمال وآلام وتظهر السمة المميزة لعقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتوضح الطابع الخاص الذي يميزها عن غيرها من الحضارات ويفصلها عن غيرها من الفلسفات .

ولهذا كان من المحال أن نقول إنها تقليد لحضارة أخرى أو إتباع الفلسفة سابقة أو صورة غير متكاملة لأفكار ماضية لأن الروح الفلسفي المنبعث من أمة ذات خصائص وسمات محددة وتقاليد وقيم مخصوصة يختلف عن الروح الفلسفي المنبعث من أمة أخرى مختلفة الخصائص ومختلفة الآفاق .

وإذا كنا نسلم بأن هناك تاريخا عاما للفكر يشمل الفلسفات جميعا وتوضع هذه الفلسفات في اطاره وذلك لأن الفكر الانساني متصل الحلقات ، ولكن من أكبر الأخطاء التسليم بأن الفلسفات تتشابه في جوهر مذاهبها ، وتتحد في أقوال فلاسفتها وتتفق في طرق مفكريها فهذا ضد طبائع الأشياء ، بل أن الواقع يشهد بأنها تختلف تبعا للانبعاث الداخلي والخارجي في الأمم ومن ثمة فإننا لن نقبل أن يقال إن الفلسفة الاسلامية لم تبدع شيئا ، فقد كانت أسيره لفكر اليونان وأوهام اليونان ، فهذا زعم بعيد عن الصحة بعد العدم عن الوجود ، فقد فهم فلاسفة المسلمين الفكر اليوناني أعمق الفهم وهضموه أجود الهضم ووجهوه أدق التوجيه ووضحوا منه ما غمض وبسطوا ما تعقد وأناروا ما أظلم وبرهنوا على ما أعوزه البرهان ولم تعزب هذه الحقائق عن أدقاء

المستشرقين فتنبهوا إليها وسجلوها في مؤلفاتهم بحروف الإجلال والخلود .

يقول البارون « كارادى فو » في كتابه « ابن سينا » .

إن كل ما قلناه آنفا عن ابن سينا ، وما استشهدنا به من نصوصه يشعر القارىء بميزات الوضوح والإيجاز والدقة والحزم والقوة في هذا المنطق الذي يتبع المؤلف فيه أرسطو وشراحه ولكن بحرية ودون أن يجعل نفسه مرة واحدة عبدا لهم ، لا في منهجهم ولا في علمهم بل ـ العكس ـ هو يكمل منهم ما نقص ويصلح ما فسد ويهاجم ما حاد عن الحق في رأيه(١) .

لقد أصلح فلاسفة الإسلام ـ إذن ـ على حد تعبير « كاراد فو » ـ من الفلسفة الأغريقية ما فسد ، ومن ينظر في تلك الفلسفة بعد معالجة المسلمين إياها يلاحظ أن مذاهب الفلاسفة الأغريق بعد أن درسها فلاسفة الإسلام لم تعد كما كانت حين وضعها أصحابها وذلك بما أضيف إليها من عناصر جديدة ذات قيمة أساسية بعد أن أخذنا منها ما أخذنا ورفضنا ما رفضنا وكان ما أخذناه قليلا ، ثم وضعنا البناء المظيم وجرى الفكر نهرا سيالا يبدع ويفتن .

أجل لقد أتت الفلسفة الاسلامية بخلق جديد وألقت بتصورات كبرى في تاريخ الفكر الانسانى(٢) وحولت هذا الفكر من طور إلى طور وسارت قدما نحو فكر خلاق فريد

---

(١) انظر ص ٦ د/ محمد غلاب : المرونة عند مفكرى المسلمين ـ الدار المصرية للتأليف والنشر .

(٢) انظر ص ٢٣ ج ١ د/ على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام دار المعارف طبعة سابعة .

ومع ذلك كله فقد تعرض الفكر الإسلامى كما تعرضت الحضارة الإسلامية برمتها لحملة ظالمة وتهجم سافر من بعض الباحثين الغربيين على اختلاف نزعاتهم ولغاتهم وبيئاتهم وكثر جدل هؤلاء حول قيمة الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى حتى انتهوا إلى آراء ينقض بعضها بعضا .

ولست أدرى على أى أساس سلب هؤلاء من المسلمين أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان بوجه عام وكيف غفلوا عن حقيقة واضحة كالشمس فى رابعة النهار وهى أن العقل الإنسانى ـ وهو أداة الفكر الفلسفى ـ لا يمكن أن يكون هبة لأمة دون أخرى أو منحة لجماعة دون جماعة . نعم قد تتفاوت القدرات قوة وضعفا من شخص إلى آخر أو من بيئة إلى أخرى . ولكن ذلك لاينفى وجود القدر المشترك الذى به يتميز الإنسان عما سواه من بقية الكائنات الحية .

وقد تنبه لهذه الحقيقة حجة الإسلام أبو حامد الغزالى حين تعرض للحكم على المنطق باعتباره معيارا للحكم على الفكر من حيث الصحة أو الخطأ . مؤكداً أن الإختلاف فى الإصطلاحات لا يعنى اختلاف العقول مبينا أن المفارقة بين ما قدمه مفكرو الإسلام وبين منطق أرسطو لا تتجاوز المفارقة فى الاصطلاح . وأما فى الحقيقة فلا ، لأن مدارك العقول تمثل القدر المشترك بين البيئات الفكرية المختلفة (١).

ولست أظننى بحاجة إلى التوكيد بأن هناك حكما جائرا على الفكر الإسلامى ألقى ظلاله الداكنة على أفئـــدة من انجرف وراء التيار

---

(١) انظر ص ٥ ج ١ . د / محمد نصار : فى الفلسفة الاسلامية ـ طبعة أولى مكتبة الانجلو المصرية .

العدائى للإسلام ، حيث أسهم فى تكريسه وتثبيته بعض ضعاف النفوس من المستشرقين الذين تنادوا إلى تقديم رؤية تقليدية ساذجة تدعى أن الفكر الفلسفى فى الاسلام صورة ظلية محنطة المعالم للفكر اليونانى ومدارسه المختلفة ، وأن الفلسفة الإسلامية لا تملك جدة ولا ابتكارا .

وكان الهدف من مواقفهم تلك هى إضعاف جوانب المؤشرات الحضارية فى تراثنا الواسع ، واعطاء صورة مهزوزه باهتة لنتاج مفكرينا وعلمائنا ، لسد ثغرة النقص التى يعانيها هؤلاء فى أحكامهم المزيفة ولدفع دعاوة أن الحضارة الاسلامية كانت همزة الوصل البناءة بين حضارة الغرب القديم ومدنيته المعاصرة .

ورغم هذه الظلامة التى ألحقها المستشرقون بالفكر الإسلامى فإن الجذوة الحية فى النفوس الطيبة لا يمحقها ارهاص المتعسفين والحاقدين ، بل تبقى تستعر شعلتها الوقادة لتضىء الطريق من جديد ، وكان من صورها إنصاف الآخرين من المستشرقين ممن أدركوا حقيقة هذا الفكر وبجال أصالته وعمق جدواه فكانت أحكامهم فى هذا السبيل بارقة نور تضىء للضالين مسالك الهداية وتنصف أصحاب الحق من الناكثين عليه وعلى تراثه وفكره ورجاله .

لقد قرر التاريخ وشهد الواقع أن هناك فلسفة إسلامية أصيلة ، ذلكم أن الفلسفة لا تأتى من فراغ ولا تقوم إلا على تراث الأقدمين فهى - كما قلنا - بناء شامخ شيدت صرحه الأجيال جيلا بعد جيل ، وقد إستفاد فلاسفة الإسلام من فلاسفة اليونان ، كما استفاد آخرون غيرهم وأخذوا من حكمة الهند والفرس والصين . كما فعل اليونان من قبلهم ، ورفعوا راية التوفيق بين آراء الفلاسفة الأقدمين وبين الفلسفة والدين على أسلوب

مبتكر ، وأتوا بالنظريات العميقة فى قضايا فلسفية مختلفة . وكان لهم الأثر الفعال فى فلسفة العصر الوسيط ، وكانوا حلقة حقيقة وضرورية فى سلسلة التيارات الفلسفية العالمية .

وقد أردنا بهذا البحث أن نوضح هذه الحقيقة متوخين ـ بعون الله ـ البساطة فى العرض والوضوح فى التحليل والإجتهاد فى الرأى عند الحاجة إليه وسوف نسير مع الفلسفة الإسلامية(١) ـ كى نثبت أصالتها ـ متتبعين الروافد المختلفة التى وصلت إليها فعمقت المجرى وأثرت التيار الفلسفى الإسلامى ، فسار فى طريقه المرسوم يحمل بين أمواجه المتدفقة المتجددة فكرا إبداعيا ورأيا مبتكرا وعطاء لا ينضب فأنشأ حضارة وأقام صرح مدنية سعدت بها الأجيال ونعمت بظلالها الأمم وجنت ثمار غرس المسلمين ، نهضة شاملة فى كل ميدان من ميادين الحياة .

لقد بقيت الفلسفة الإسلامية موفورة القـــوة تنهض بالحياة والحيوية ، رغم السهام القاتلة التى وجهت إليها ، بينما ذهب غيرها أو تلاشى وأصبح ذكرى فى عالم النسيان ، وهذا ـ دون شك ـ دليل صلاحيتها وبرهان أصالتها وآية جدتها ، وصدق الله العظيم إذ يقول فى كتابه الكريم :

(فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

هذا والله أسأل أن يوفقنا لخدمة الدين والعلم والأمة الإسلامية ،

---

(١) فى أبحاث متتابعة إن شاء الله .

وأن ينفع بهذا الجهد المقل عشاق المعرفة وطلاب الحقيقة وأن يأخذ بأيدينا جميعا إلى طريق الهدى والرشاد .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا

ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا

ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به

وأعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولنا فانصرنا على القوم الكافرين .

هذا وبالله التوفيـــق ؟

دكتور
محمد رشاد عبد العزيز

تمهيـــد

حقيقـة الفلسفة

حقيقـــة الفلسفة

مما لا شك فيه أن الفلسفة هي وليدة نظرة العقل البشري إلى الوجود في أصله وجوهره ومصيره وتطلعه إلى إدراك المبادىء الأولى فيه ، والعقل — دون ريب — قبس من نور الله تعالى أودعه الله في الانسان كي يرسله في مجاهل الوجود وشعابه فيتتبع الموجودات ويحاول أن يدرك ما هياتها وشكلها مرتقيا من علة إلى علة متقلبا كتاب الكون صفحة بعد صفحة حتى يصل إلى الغاية القصوى التي هي العلة الأولى والتي كان كل شيء بها ومن أجلها ، ثم يرتد على أعقابه محللا العناصر والطبائع ، كاشفا عن حقيقة الجواهر والأعراض ،قسما ومرتبا حتى تصبح أمامه صورة الكون واضحة جليـــة فينطلق منها لتفسير كيفية إنسجام الأشياء في ذاته وفيما حوله .

وكثيرا ما يضل العقل الطريق من كثرة المعضلات التي أمامه فيتخبط في ظلمات شتى ويقف أمام كثير من القضايا حائرا في حقيقتها عاجزا عن إدراك كنهها فتتفجر الأسئلة العديدة التي تبحث عن إجابة شافية أو حل مقنع[1] .

ومن هنـا تعـــددت الاجابات ومن هنـا اختلفت المذاهب وتنوعت النظرات .

---

(١) معالم الفلسفة الاسلامية الأستاذ محمد جواد مغنية ص١٦ طبعة ثانية دار القلم — بيروت .

وليست هذه النظرات وتلك الإتجاهات حسب تعبير « اندره كرسون » سوى أصداء لميل جامح لا يكبت يتكون فى الانسان من عهد الطفولة ويرافقه حتى آخر رمق من حياته (١) .

ولابد للإنسان من تفسير شامل للوجود يسلك على أساسه فى هذا الكون ، وبه يتحدد منهج حياته ونوع النظام الذى يحقق له هذا المنهج ، فهو بحكم فاعلية الذهن التى تنضم إلى معطيات التجربة يبحث عن تعليل يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التى يتعامل معها والتى على أساسها تنهض الأمم وترتقى المدنيات وتتقدم الحضارات وتشارك فى تقدم الإنسان ونمو ملكاته وقدراته . فالفلسفة هى الرحيق الذى يفرزه . أشرف ما وهب الإنسان وهو العقل ، وهى التى تغذى آمال الإنسان وأحلامه فى المستقبل الأفضل الذى ينعم فيه بالأمن والخير والسعادة إنها البحث فى ماهية الأشياء وأصولها وعلاقة بعضها مع بعض ، ومع الإنسان والوجود الإنسانى . إنها التطلع الدائب إلى الآفاق البعيدة والأسس العامة ، إنها نشدان لعنصر الوحدة الكامن وراء الكثرة وتعقب الإنسجام المختبىء خلف غشاء كثيف فى وجوه التنوع والإختلاف(٢) إن الفلسفة على حد تعبير « هربرت سبنسر » : هى المعرفة التامة التوحيد(٣) .

---

(١) تاريخ الفلسفة العربية ص ٧ ج ١ حنا الفاخورى وآخر ، دار المعارف ، بيروت .

(٢) ص ٢٧ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، د / محمد عبدالرحمن مرحبا، طبعة ثالثة سنة ١٩٨٣ منشورات عويدات بيروت .

(٣) انظر ص ١٠ د / عبد الرحمن بدوى مدخل جديد إلى الفلسفة : المطبوعات ، الكويت .

والواقع أنه مهما تفرقت كلمة الفلاسفة حول موضوع الفلسفة ومنهجها وغايتها فإن الكل مجمع - أو شبه مجمع - على القول بأن الفلسفة هي ضرب من النظر العقلي الذي يهدف إلى معرفة الأشياء على حقيقتها .

ولعل هذا هو ما حدا بالفيلسوف الأمريكي المعاصر « رويس » إلى القول بأن (المرء يتفلسف حينما يفكر تفكيرا نقديا في كل ما هو بصدد عمله بالفعل في هذا العالم : حقا إن ما يعمله الإنسان أولا وقبل كل شيء إنما هو أن يحيا ، والحياة تنطوي على أهواء وعقائد وشكوك وشجاعة ، ولكن البحث النقدي في كل هذه الأمور إنما هو الفلسفة بعينها .

ومثل هذا القول إن دل على شيء فإنما يدل على أن الفلسفة - بمعناها العام - إنما هي حياة ونقد للحياة أو حياة وتحليل للحياة أو حياة وتعلم الطريقة المثلى للحياة (١) .

ولذا فقد ارتبط مفهوم الفلسفة منذ البداية بمعاني الحكمة والتوجيه والكمال الخلقي .

ومن هنا فإن الفيلسوف هو الرجل الذي يوجه حياته على ضوء ما يقضي به العقل ، وتبعا لذلك فقد كانت الصلة وثيقة دائما بين النظر والعمل ، إذ كانت الفلسفة لا تقنع بالمعرفة ، بل تحاول أيضا تنظيم الحياة وتحقيق السعادة .

ولا يزال كثير من المفكرين - في أيامنا هذه - يعتقدون أن الفلسفة لا تعلمنا كيف نفكر فحسب ، بل تعلمنا أيضا كيف نحيا .

---

(١) ص ٦٣ مشكلة الفلسفة د / زكريا ابرهيم ، مكتبة مصر - القاهرة .

وأصحاب هذا الرأى يؤمنون بأن الفلسفة الحقة لا يمكن أن تكون مجرد معرفة نظرية ، بل هي فن الحياة أيضا . وليس معنى هذا أن هؤلاء ينكرون قيمة النظر المجرد وإنما هم حريصون على ربط الصناعة النظرية بالصناعة العملية ما دامت الفلسفة منذ البداية علما وعملا أو معرفة وحياة .

ولقد أصاب إخوان الصفا عندما قالوا عن الفلسفة بأن أولها محبة العلوم وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم (١) .

وهكذا يتجلى لنا أن الفلسفة علم بأصول نتعرف به إلى الوجود ، ونستخلص من معرفتنا خطة نسير عليها نحو الهدف الأعلى .

أما العلم : فهو معرفة الكائن بما هو كائن والوصول إلى المبادىء الأولى والغايات الأخيرة . وأما الخطة فهي السلوك الذى يؤدى بنا إلى تحقيق إنسانيتنا وبلوغ الكمال ، وأما الهدف الأعلى فهو السعادة الناتجة عن هذا الكمال (٢) .

وهل هناك أعظم سعادة من الذى يصل — بالفلسفة — إلى الحق والخير ؟ ذلكم أن سعادة الإنسان من حيث هو إنسان فى أن يعلم الخير والحق ، أما الحق فيعلمه لذاته ، وأما الخير فللعمل به . وقد تواترت شهادة العقول والشرائع على أن الوصول إلى السعادة

---

(١) ص ٢٣ ج ١ رسائل إخوان الصفا ، المطبعة العربية بمصر سنة ١٩٣٨ م .

(٢) تاريخ الفلسفة العربية ص ٨ الفاخورى

الأبدية بهما(١) .

حاجة الإنسان إلى الفلسفة :

وما دام للفلسفة هذا الدور الهام فى حياتنا وما ننشده معه خير وحق وسعادة فإن الإنسان كما يقول : « يسبرز » لا يمكن أن يستغنى عن الفلسفة ، ذلك أن الانسان لم يشد حظا من الفلسفة ، يسير فى الحياة سجين الأحكام المألوفة السابقة المستمدة من الادراك العام ومن العادات والعقائد المألوفة فى عصره أو مصره ، ومن معتقدات نمت فى ذهنه دون تعاون ولا موافقة صريحة من عقله المفكر ، ولدى مثل هذا الإنسان يبدو العالم كأنه نهائى واضح ، محدد المعالم ، والأمور المألوفة لا تثير عنده تساؤلات ، وينبذ باحتقار الممكنات غير المألوفة(٢) »

أما من أوتى حظا من الفلسفة فإنه لا يخضع لما فى المجتمع من تقاليد أو يستكين لما فيه من عادات بل يرسل أنوارا من فلسفته على كل ما يحيط به ، لأنه يعلم حق العلم أن ليس ثمة شىء يمكن اعتباره بينا بذاته ، وأن ليس هناك أمر يمكن القول بأنه حقيقة أكيدة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، بل كل ما فى الوجود جدير بأن يكون موضع نظر ومحل اعتبار من جديد .

فالفيلسوف لا يكاد يكف عن إيقاظ المشكلات النائمة

---

(١) راجع البصائر النصيرية ص ٤ طبع المطبعة الأميرية

(٢) انظر ص ٢٩ ، ٣٠ د / عبد الرحمن بدوى : مدخل جديد إلى الفلسفة .

وإثارة المسائل المستكنة فى أوكارها وتأليب العداء النائرة فى سكونها .

إن الفيلسوف يعمل فكره ويقدح عقله كى يكشف لنا عما فى العالم من قيم كامنة وأسرار دفينه ، إنه ذلك الإنسان الذى يستطيع أن يستخرج الكثير من القليل ، وأن يخلق الشىء من اللاشىء وأن يضيف فى كل لحظة إلى ما فى العالم من خصب وثراء وجده ، ومن ثمة فإننا نستطيع أن نقول مع « شوبنهور » :

إن الشخص الذى يتصف بالروح الفلسفية إنما هو ذلك الإنسان الذى يملك القدرة على التعجب من الأحداث المألوفة وأمور الحياة العادية فيتخذ موضوع دراسته من أكثر الأشياء عمومية وابتذالا . . .

وكلما قل حظ الإنسان من الذكاء بدا له الوجود أقل غموضا وأدنى سرية ومعنى هذا ـ أن كل شىء إنما يبدو للرجل العادى أمرا طبيعيا يحمل فى ذاته تفسير أصله ونوعه وغايته(١) .

إن الروح الفلسفية عند الفيلسوف ـ لا تقنع ـ فى تناول الأمور بالظاهر كما يفعل من تجرد من هذا الروح . بل تسعى للنفوذ إلى الباطن ، وهى التى لا تحرص على الروابط الظاهرة بقدر ما تحرص على استكناه العلاقات المستورة أو الخفية ، وهى التى لا تقف عند الأسباب السطحية ، بل تعمل على اكتناه الأسباب العميقة ، إنها روح نقدية فى جوهرها لا تأخذ الموروث والشائع والمتداول

---

(١) ص ٩ ، مشكلة الفلسفة د. زكريا إبراهيم .

من الأفكار والآراء كما هو ، ولا نسلم بشيء إلا بعد البرهان العقلي المدقق .

ولهذا جاءت القاعدة الأولى من قواعد المنهج عند « ديكارت » تقرر أنه ينبغي علينا « ألا نقبل أي شيء على أنه الحق إلا بعد أن نعرف ببينة أنه كذلك :

أي علينا أن نتجنب – بكل عناية – الاندفاع والحكم السابق وأن لا ندخل في أحكامنا إلا ما يتجلى لعقلنا بدرجة من الوضوح والتمييز تحملنا على ألا نضعه موضع الشك »(١) .

ومن هنا فإن الفيلسوف هو أكثر الناس يقظة وإحساسا وإعمالا للفكر وبحث عن الحق نظرا لأن ذهنه متفتح لكل ما في الوجود من حوله وقلبه متناغم مع كل ما يتردد في صدر الطبيعة من آلام وآمال يقول أفلاطون الفيلسوف اليوناني الشهير :

إن أكثر الناس يسيرون نياما في حين أن الفيلسوف وحده هو الرجل المتيقظ(٢) الذي يوجه نقده دائما إلى كل جانب من جوانب الحياة كي يستقيم النهج ويبدو الحق وهذه الوظيفة الحقة للفلسفة التي عبر عنها « هوركهايمر » عندما قال :

« أن الوظيفة الاجتماعية للفلسفة تكمن في نقدها لما هو سائد »(٣) ولاشك أن هذه الوظيفة وراء كل تقدم ينشده الإنسان .

---

(١) ديكارت : مقال عن المنهج سنة ١٩٢٧ القسم الثاني .

(٢) انظر ص ١١٨ : مشكلة الإنسان د / زكريا ابراهيم : القاهرة مكتبة مصر سنة ١٩٥٩

(٣) راجع ص ٨١ : الفلسفة في الوطن العربي المعاصر – مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة أولى بيروت ، بحوث لبعض المفكرين

ومن هنا فإن الدراسات الفلسفية كما يقول : « ديكارت » ألزم لاصلاح أخلاقنا وهداية سلوكنا فى الحياة من استعمال عيوننا لهداية خطواتنا(١) .

لقد وجد الإنسان فى هذا العالم على غير إرادته فلا أقل من أن يتعقل هذا الوجود الذى يحويه وأن يتفهم نفسه وأن يحدد منه مكانه وأن يرسم غايته من حياته ولا يمكن أن يتم له هذا بغير فلسفة تساعده على تكوينها دراسات للمذاهب الفلسفية التى وضعها أهلها حلا لمشكلات الوجود ومعضلات الحياة الانسانية .

(١) مبادىء الفلسفة ص ٣١ ترجمة عثمان أمين دار الثقافة (ديكارت)

الفلسفة والحضارة :

تقوم الفلسفة منذ الماضي السحيق بوظيفة إجتماعية لها خطرها الملحوظ في تقدم حياتنا الإنسانية ، وتتمثل وظيفتها هذه في تأثير مذاهبها النظرية على الحركات التقدمية وتطورها في مجرى التاريخ البشرى وباستقراء الكثير من النهضات الإجتماعية والعلمية خلال التاريخ ، نلاحظ أن الفلسفة وقفت وراءها واضطلعت بعبء التوجيه المستنير الذى أدى إلى نضج الإدراك وتفتح الوعى فى كثير من الشعوب ، وبهذا كان للفلسفة - إلى جانب وظيفتها الأكاديمية العلمية فى تفسير طبيعة العالم وحقيقة الانسان - وظيفة التوجيه المستنير إلى عالم أفضل وحياة أكرم وأسعد وإلى نهضة المجتمعات وتقدمها فبدون فلسفة لا تكون حضارة كما صرح بذلك أعلام الفلسفة العملية فى أمريكا[1] .

والواقع أن العلاقة وثيقة بين الحضارة والفلسفة فإن كلا منهما سبب ونتيجة للأخرى ، وتبعاً لذلك فقد ذهب بعض الباحثين إلا أنه لا مجال للفصل إطلاقاً بين الفلسفة ودورها فى صميم التاريخ الحضارى - لأنك بمجرد المحاولة أن للكشف عن السمات المميزة للحضارة والوظائف الخاصة التى تضطلع بها فقد عرفت الفلسفة ذاتها ولعل هذا هو ما قصد إليه « ديوى » حينما كتب يقول :

إن الفلسفه هي قوة تاريخية حاسمة تقترن بكل تغير يطرأ على الحضارة وهى حين تصوغ الأنماط التى ينبغى أتباعها فى المستقبل سواء أكان ذلك فى مجال الفكر أم فى مجال العمل فإنها تمارس دورها فى صميم تاريخ

---

(١) ص ١٢ مشكلات فلسفية : ابراهيم اللبان وآخرون .

الحضارة بوصفها أداة تغيير أو إضافة أو تعديل(١) نظراً لأنه لا قيام لحضارة ما بدون دعائم فكرية تستند إليها. وإذن فليس أمعن فى الخطأ مما ذهب إليه البعض من أننا لو حذفنا كل ما جاءت به الفلسفة فإن الإنسانية لن تخسر شيئاً ؟ أليست الفلسفة علماً عقلياً ؟ وحياة روحية وثقافة خصبة وفكراً حياً وحكمة عالية ؟ فكيف لا يكون لها دور كبير فى صميم التاريخ العام للحضارة وهى التى طالما عدلت المثل العليا، وغيرت السياسات الدولية الكبرى وأنارت السبيل أمام مستقبل البشرية وهذبت طبائع الإنسانية . وذللت العقبات أمام تقدم ركب الحياة . ثم ماذا عسى أن يكون معنى الحياة والوجود والمصير الإنسانى كله لولا خيال بعض الفلاسفة وإلهاماتهم وجرس معانيهم . فى كل عصر وصل إلى درجة معينة من التنظيم والوعى والتماسك وفى لحظة فذة فيه من تألق العقل ويقظة الوجدان وإشراق الروح يظهر رجال يمرون فى هذه الأرض مرور الغمامات الخيرة فوق الصحارى البيد ثم يمضون وقد أعطوا ما أعجز عصراً بأكمله وربما مدينة بأسرها . من هؤلاء العمالقة رجال يمضون بالتفكير الفلسفى قدما لأنهم يهتمون بالتحليل الواعى لمعضلات الكون والحياة فى مرحلة تاريخية بعينها كى يعيدوا صياغة الحياة من جديد وتنظيم التجربة الإنسانية كلها كلما كان ذلك ممكناً ذلك أن روح الفيلسوف وفلسفته لا تنحصر فى إطار هذا العصر وحده بل تمتد قليلا إلى الأمام وإلى الوراء فى حركة متموجة مستمرة لتستلهم الماضى وتبنى المستقبل فى صراع الحاضر وتلاطم أمواجه(٢).

والحق أن الفلسفة تدفع أهلها للعمل على السمو بالحياة فى هذا الوجود،

---

(١) ٢٢٦ د. زكريا إبراهيم مشكلة الفلسفة .

(٢) ص ٤٠ — ٤١ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية .د/ مرحبا.

والفيلسوف — وهو ابن الأرض وربيب الملأ الأعلى — عندما يتجه إلى دفع عجلة الحضارة متعلقة بالقيم العليا فإنه يسعى جاهداً فى سبيل العمل على تحرير العالم من أسر المادة ، وكأنه هو يريد ان ينفذ بتجربته الفكرية إلى أعمق أعماق الوجود المادى بثقله وكثافته . وسواء تمثل عمل الفلسفة فى صورة فكرية خيالية أم تجلت فى شكل إبداع فنى — فقد كانت الفلسفة عند سقراط أعظم الفنون جميعاً(١) — أم تجسدت على هيئة إكتشاف عقلى ، فإن الفلسفة تشارك فى كل هذه المجالات فى صنع أهداف نبيلة سامية لا غنى للبشرية عنها . إنها تشارك فى :

١ — تطور المجتمع .

٢ — دعم قيمة .

٣ — الحفاظ على كرامة الإنسان .

٤ — معرفة خالق الكون جل جلاله ، يقول الفارابى .

وأما الغاية التى يقصد إليها فى تعلم الفلسفة فهى معرفة الخالق تعالى وأنه واحد غير متحرك وأنه المرتب لهذا العالم(٢) .

ومن هنا فان الفلسفة لاتدفع أهلها بعيداً عما يدور فى المجتمع ، لأن المجتمع فى نظرها هو بمثابة الحقيقة العليا التى لا يستطيع الفيلسوف أن يعيش بدونها .

---

(١) أفلاطون ص ١١٩ د . أحمد فؤاد الأهوانى : دار المعارف القاهرة .

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة ص ٤٩ الشيخ مصطفى عبد الرازق . القاهرة ١٩٥٩ م .

يقول يودور كايم :

إن الفيلسوف لا يستطيع أن يخرج من المجتمع دون أن يخرج بالتالى عن صميم إنسانيته[1] ومن هنا فلابد للفيلسوف من التأثير فى مجتمعه بصورة أو بأخرى، نظراً لأنه لا قيام لأية حضارة بدون دعائم فكرية تستند إليها وآراء جريئة تحطم تقاليد الواقع وتغير من عادات المجتمع وقيمه. وتقضى على السلبية التى توقف عجلة التقدم، ولا شك أن الفلسفة هى التى تقدم هذه الآراء وتلك الأسس الفكرية، يقول «هيجل»

إن الفيلسوف يبرز الأفكار الأساسية التى يعمل بها الناس دون وعى منهم[2]. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف لا يكون للفلسفة دور كبير بل الدور الرائد فى صميم التاريخ العام للحضارة وتقدم المجتمعات[3].

ولذلك فإن أجل نعمة - كما يقول ديكارت - ينعم الله بها على بلد من البلاد هى أن يمنحه فلاسفة حقيقيين[4].

وأخيراً نريد أن نلفت النظر إلى أحد الجوانب الهامة التى تدلنا على أهمية الفلسفة ومدى إرتباطها بالمجتمع والحياة. ويتمثل هذا الجانب فى أن فهم التيارات الفكرية والأيديولوجيات المنتشرة فى العالم شرقه وغربه يعتمد — فى المقام الأول — على فهم الأفكار الفلسفية التى تشكل الأساس الذى تقوم عليه هذه التيارات وتلك الأيديولوجيات، والإنسان

---

(١) ص ١٦٢، ١٦٣ . زكريا ابراهيم - مشكلة الإنسان .
(٢) ص ١٣ د / امام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - دار الثقافة .
(٣) للمزيد راجع ص ٢٣٧ وما بعدها . د / زكريا ابراهيم - مشكلة الفلسفة .
(٤) ص ٣٠ مبادىء الفلسفة لديكارت ترجمة عثمان أمين دار الثقافة بالقاهرة ١٩٧٥ م .

بما هو إنسان لم يعد يستطيع فى عالم اليوم أن ينعزل - عما يموج حوله من إتجاهات فكرية فى شتى أنحاء العالم ، بل أصبحت هذه الاتجاهات تؤثر بطريقة أو بأخرى - ان سلباً أو إيجاباً - فى كل مكان تقريباً بفضل ما لدى البشرية اليوم من وسائل حديثة متطورة لنقل الأفكار والأخبار.

فإذا أردنا ان نتابع التطور الفكرى الذى يسود عالم اليوم ، وأن نصل إلى مستوى الفهم والإدراك لما يدور حولنا ، فعلينا مستعينين بالفلسفة أن نتجه لدراسة جذور هذا التطور الفكرى القائم ، تلك الجذور الضاربة فى أعماق الفكر البشرى فى شتى مراحله . والفلسفة إذ تهتم بذلك فإنها لا تقف عند حدود الكشف عن الأسس الفكرية للنظريات القائمة والسابقة ، بل عليها أن تعمل باستمرار على الوصول بالإنسانية إلى المستوى الأمثل وذلك عن طريق التطوير المستمر للأفكار والأنساق الفلسفية والربط بين الفكرة وتطبيقها وعلى الأخص فى مجال السلوك فحضارة الأمم وثقافتها - كما يقول ديكارت - إنما تقاس بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها[1] .

من هنا كان للفلسفة مكانها الملحوظ فى خدمة البشرية والتطور بها إلى الكمال - بل إن من الناس من يرى العلم - مع كل خدماته للحياة الإنسانية - مسئولا عن الدمار الذى يصيب البشرية وحضارتها من وراء نظرياته ، يشهد بهذا - فى رأيهم - ضحايا المدمرات وأدوات التدمير ، إن العلم يبدو فى نظر هؤلاء كأنه يهدم أكثر مما يبنى ويسلم إلى التعاسة أكثر مما يسلم إلى السعادة ، أما الفلسفة فإن وظيفتها تتمثل فى البناء ، بناء

---

(١) تمهيد للفلسفة دكتور محمود زقزوق ص ٣٥ ، ٣٦ بتصرف مكتبة الأنجلو المصرية طبعة ثالثة ١٩٨٦ م .

نظرة سليمة للوجود وللحياة الإنسانية بوجه عام ، فإن توجهت الهدم قصدت بهذا أن تزيل بناء متداعياً من الأوهام والأباطيل والقيم المزيفة الزائفة توطئة لبناء عالم من الحقائق والقيم أصح وأصلح وأسلم ، وإذا كان ما يقولونه عن الفلسفة صحيحاً فى جملته ، فإن إتهامهم للعلم تجن على طبيعة العلم ومناهجه ، فإن وظيفته الأولى أن يتوصل بمناهجه إلى وضع قوانين أو نظريات يفسر بها الظواهر التى يقوم بدراستها وعند هذا يقف عمله ، أما تطبيق نظرياته فالمسئول عنها هم المخترعون وتجار الأعمال والسياسة معاً وإذا كانوا يسخرون فى كثير من الأحيان نظريات العلم فى التدمير ـ كأن أن يميلوا إلى استخدام القنبلة الذرية أو الهيدروجينية أو نحوها فى إهلاك البشرية وتدمير حضارتها ـ فقد كان فى وسعهم أن يمنحوا جهودهم لاستغلالها فى الصناعة لصالح البشرية ورفاهية أهلها ، ومع براءة العلم من تهمة التدمير فإنه يبدو فى نظر الناس كأنه يقود البشرية إلى التعاسة أكثر مما يحقق لأهلها السعادة ، أما الفلسفة فإن مذاهبها كثيراً ما وضعها أهلها لتنير الطريق إلى عالم أفضل لتخلص البشرية من محنتها وتحررها من أسباب تعاستها وترفع أهلها إلى أرفع مستوى تحتمله طاقتهم(١) .

ومن هنا كان إهتمام فلاسفة المسلمين بالفلسفة وعنايتهم بها واحتفاءهم بقيمها نظراً لدورها العظيم فى حياة المجتمع ودفع الفرد للتحلى بالقيم والوصول إلى الحقائق والحرص على المشكلات العقلية لأنها ـ كما يرى الكندى لا تعق ولا تبيد ولا تتعصب(٢) وإلى التشبيه ـ كما يقول الجرجانى ـ بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية كما أمر الصادق ﷺ

(١) انظر ص ١٤ مشكلات فلسفية إبراهيم اللبان وآخرون .

(٢) ص ١٠٧ ج ٢ د / عبد الحليم محمود التفكير الفلسفى فى الإسلام ـ طبعة رابعة سنة ١٩٧٧ الدار المصرية .

فى قوله تخلقوا بأخلاق الله . أى تشبهوا به فى الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات[1] فهى أعلى الصناعات منزلة وأشرفها مرتبة لأن غرض الفيلسوف فى علمه – كما يرى الكندى – إصابة الحق وفى عمله العمل بالحق. وإذا ما طبق الفيلسوف هذا المنهج فإنه يجعل الكون كله يتجه إلى الله جل جلاله فى طاعة خاضعة وخشوع ساجد ، والحياة بقضها وقضيضها رهن الإرادة الإلهية والإنسان وسط هذا العالم قد تحمل – وحده – الأمانة فى قيادة الحياة بنهج الحق سبحانه وتعالى ومن هنا كان إهتمام فلاسفة الإسلام بالفلسفة لأن الفلسفة فى نظرهم هى النور الذى على هاماته يتحقق هذا كله . لأنها – على حد تعبير ابراهيم مدكور و يوسف كرم – أرقى معرفة مقدورة لنا بوسائلنا الخاصة التى هى العقل ومناهجه(٢) .

---

(١) ص ١٧٦ التعريفات للجرجانى مكتبة لبنان بيروت سنة ١٩٦٩ م .

(٢) انظر ص : ٢٢ دروس فى الفلسفة لتوجيهية .

الفلسفة الاسلامية

سوف نتكلم عن فلسفة إسلامية وليس عن فلسفة عربية كما يحلو لكثير من المفكرين ـ خلال فترات طويلة من تاريخ الفلسفة ـ أن يطلقوا عليها فلسفة عربية .

أجل كان نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم عربيا ، وكان الوحى يهبط عليه بالقرآن الكريم بلسان عربي مبين ، وكانت العربية كذلك هي الأداة الفكرية التى استعملها العرب بل وغير العرب فى سبيل بناء آداب من أغزر الآداب فى العالم قاطبة .

ومع ذلك كله فإننا لو قصرنا الفلسفة على الأمة العربية التى لا تشكل فى المجتمع الاسلامى الكبير سوى قلة قليلة من مجموعه لترتب على ذلك أبعاد كل فلسفة وكل فيلسوف لا ينطق بلغة الضاد .

وهنا يبرز سؤال أين نضع المفكرين المسلمين من الذين كتبوا فلسفتهم باللغة الفارسية أو غيرها وهم كثرة على مر العصور والأيام منذ ابن سينا والسهروردى وما إلى ذلك ؟

إننا سوف نتكلم عن الفلسفة التى تدور فى محيط الاسلام وخاصة وأن القرآن الكريم وإن نزل باللغة العربية إلا أنه كان للبشرية كلها فلم يخص أمة دون أمة أو مجتمعا دون مجتمع ، بل كان بتعبير القرآن نفسه (ان هو إلا ذكر للعالمين)(١) .

---

(١) سورة التكوير آية : ٢٧ .

إننا سوف نتكلم عن الفلسفة الإسلامية كفلسفة ترتبط نهضتها وانتشارها الأساس بالواقع الديني والروحي للإسلام، والتي ما وجدت إلا لتدل وتشهد على أن الإسلام هو الدين الذي احتضن الفكر ودفعه دفعات قوية نحو التقدم والرقي(١).

فحين ظهرت الفلسفة في الإسلام وجرت هذه اللفظة في اللسان العربي ونمت وازدهرت وبرز الفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي والشيخ الرئيس وغيرهم.

وألف المتأخرون الكتب التي تدون سيرهم وآراءهم، أطلق هؤلاء المتأخرون عليهم اسم فلاسفة الإسلام(٢). أو الفلاسفة الإسلاميين أو حكماء الإسلام فيما جرى على ألسنة الشهرستاني أو القفطي أو البيهقي أو غيرهم.

ومن أجل ذلك قال الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه القيم «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية»(٣).

«وعندي أن هذه الفلسفة قد وضع لها أهلها اسما اصطلحوا عليه، فلا يصح العدول عنه ولا تجوز المشاحة فيه».

---

(١) انظر ص ١١ من تاريخ الفلسفة الاسلامية منذ الينابيع حتى وفاة ابن رشد: كوربان — الترجمة العربية منشورات عويدات – بيروت – لبنان.

(٢) ص ١١ الفلسفة الاسلامية للأهواني: الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٥.

(٣) ص ١٩، ٢٠ بتصرف طبعة ثالثة – مطبعة لجنة التأليف والنشر.

فإننا نجد مثلا فى كتابى : « الشفاء والنجاة » لابن سينا التعبير بالمتفلسفة الاسلامية ، ونجد فى كتاب : « الملل والنحل » للشهرستانى استعمال كلمة فلاسفة الاسلام فى مواضع متعددة ، منها :

« المتأخرون من فلاسفة الاسلام مثل يعقوب بن اسحق الكندى وحنين بن اسحاق . . الخ » .

فهؤلاء المشتغلون بالفلسفة فى ظـــل الاسلام من مسلمين وغير مسلمين يسمون فلاسفة الاسلام ، وتسمى فلسفتهم : « فلسفة إسلامية » بالمعنى الاصلاحى ؛ ووردت عبارة : « فلاسفة الاسلام » و « حكماء الاسلام » فى كتاب : « أخبار الحكماء » و « مقدمة ابن خلدون » .

من أجل ذلك كله نرى أن تسمى الفلسفة التى نحن بصددها كما سماها أهلها « فلسفة إسلامية » بمعنى أنها نشأت فى بلاد الاسلام وفى ظل دولته ، من غير نظر لدين أصحابها ولا لغتهم ولا نرى فى هذه التسمية موضع نقد يدعو للتفكير فى تبديلها .

وإذا كان هـذا رأى صاحب التمهيد الذى نميل إليه ونقول به فإنه أيضا رأى صاحب كتاب : « فى الفلسفة الاسلامية » ، حيث يقول :

أما المراد بإسلاميتها فقد يكون محل نقاش طويل ، غير أننا نميل إلى التساهل فى إطلاق هذا الوصف ، اعتمادا على أن هذه الحصيلة الفكرية إسلامية من حيث المشاكل التى عالجتها والظروف التى مهدت لها ، ومن

حيث أهم الغايات التى توختها(١) . وهذا ما يراه أيضا الدكتور / إبراهيم مدكور حيث يقول :

فأنا أميل لتسمية هذه الدراسات : « فلسفة إسلامية » لاعتبار واحد هو : أن الاسلام ليس دينا فقط ، بل هو دين وحضارة وهذه الدراسات على تعـــدد مصادرها وتباين المشتغلين بها قد تأثرت ولا شك بالحضارة الاسلامية ، فهى إسلامية فى منشا كلها والظروف التى مهـدت لها ، إسلامية أيضا فى غايتها وأهدافها ، إسلامية أخيرا بما جمعه الاسلام فى باقتها من شتى الحضارات ومختلف التعاليم (٢) .

وفى موضع آخر يقول :

أوثر تسميتها إسلامية ، لأن الاسلام ليس عقيـــدة فقط ، ولـكنه أيضا حضارة ولـكل حضارة حياتها الأخلاقية والمادية والفـكرية والعاطفية ، والفلسفة الاسلامية تشمل كل ما كتب من دراسات فلسفية فى أرض الاسلام سواء بأقلام المسلمين أو النصارى أو اليهود (٣) .

وإذا كنا نختار هذه التسمية . وأغلب الظن أنها أقرب إلى الحق وأدنى للصواب ، فلا داعى — والأمر كذلك — فى أن نسوق آراء من يسميها « فلسفة عربية » أو فلسفة إسلامية عربية . . إلخ .

---

(١) انظر ص ١٦ د / محمد كمال جعفر فى الفلسفة الاسلامية — مكتبة دار العلوم سنة ١٩٧٥ م .

(٢) ص ٢٣ ج ١ فى الفلسفة الاسلامية : منهج وتطبيقه — طبعة ثالثة ، دار المعارف بمصر .

(٣) المصدر السابق « تصدير » .

ولا داعى لسرد حججهم وذكر أدلتهم ، ومناقشتها والرد عليها ، لأننا نثق أنهم أرادوا وجه الحقيقة كما أردنا ، وأنهم أعملوا فكرهم ، وما عليهم بعد ذلك إن وصلوا إلى رحاب الحقيقة ، أو وقفوا عند عتباتها ينتظرون الإذن بالمثول ، فسوف تقدر أعمالهم ويثنى على جهودهم وآرائهم ، ذلكم أن الخلاف فى التسمية لايلغى شيئاً من حقيقة المسمى ولا من واقعه التاريخى .

فلنسمها إذن : « الفلسفة الاسلامية » ولا مشاحة فى الاصطلاح كما يقولون .

الفصل الأول

الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد

الفصل الأول

الفلسفة الاسلامية بين الاصالة والتقليد

ترى : أأبدع مفكروا الاسلام فلسفة ؟ أم كانوا عالة فى هذا المجال على غيرهم ؟

لقد اختلف مؤرخو الفكر الفلسفى - فى القديم والحديث معا - حول تقيم عناصر الابداع والابتكار عند العرب وفى أصالة الفلسفة الاسلامية وذلك تبعا لاختلافهم فى مواقفهم من العقلية العربية .

فقد قامت نزعات مختلفة وآراء متباينة وأقوال متضاربة ونظرات متعارضة حول نشأة الفلسفة الاسلامية .

فذهب فريق إلى أن العربى كانسان له من الخصائص العقلية الطبيعية والمميزات الفكرية ما للناس جميعا فى أى مكان ومن أى جنس - ومن هذه الخصائص العمل العقلى المنظم والتفكير السليم الذى يسمى عادة باسم الفلسفة ، ولذلك فإنه من الطبيعى أن يكون للعقل العربى إنتاج فكرى يتسم بالابتكار ، وأن هذا العقل بما أنتج من فكر وما أبدع من من رأى قد شارك فى بناء الصرح الشامخ للفكر الانسانى ، ولم يكن الفكر العربى - كما يقال - صدى أو ترديدا للفكر اليونانى ، بل لقد استقل هذا العقل ببعض المشاكل الفكرية وكان له آراؤه الخاصة به سواء فى المشاكل التى عرفها عن الاغريق أو فى غيرها من التى تنسب إليه .

ومن هذا الفريق المؤرخ الألمانى للثقافة العقلية « ديلتثاى » الذى يعترف بأن العقلية العربية يحق لها أن تنتج كعقلية أى جنس آخر ، وأنها

قد أنتجت بالفعل فى بعض الموضوعات وأنه كان لهذا الانتاج أثر فى تطور العقلية العربية ولذا فهو يقول :

« إن الغرب مدين للعرب فى توسيع نطاق الجبر اليونانى وهم بلاشك قد هيأوا الأمر بتقديمهم الخاص إلى نشأة العلم الطبيعى الحديث فيتوسعوا فى الكيمياء عما وصلت إليهم من مدرسة الاسكندرية وأوجدوا عدة مستحضرات كيماوية ، كما تقدموا فى الرياضة واستخدموها كآلة للتقدير الكمى (فى المساحة)(١)

ويقول المستشرق « مونتر » أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة جنيف عن الفلسفة الاسلامية ما يأتى(٢) :

ورأينا نفوذ أرسطو العجيب على العقل العربى وعلى المسلمين جميعا هو فى طريقة تفكيرهم . سواء أكان فى الناحية العلمية التجريبية أم فى الناحية المنهجية المنطقية ، ويلاحظ فيما عدا ذلك أن الفلسفة الاسلامية وإن كانت فى مبدئها وجوهرها أرسطية ، لكن رغم ذلك ليست صورة مكررة للأفكار الاغريقية ، إذ العرب وإن احترموا الاغريق دائما كأساتذة لهم لكنهم فهموا كيف يحتفظون حقا بطابع الأصالة والابتكار فى فهمهم وتصويرهم لتعاليمهم ، ذلك الطابع الذى جعل لكتبهم ورسائلهم جدة خاصة

وذهب فريق إلى أن العرب ليس من صفاتهم التعمق فى الفكر ولا الابتكار فى الرأى ، وأن فكرهم مجرد عن كل مزايا التفكير الفلسفى . فليس عند العرب كلمة وعند المسلمين كملة مذهب فلسفى محكم

---

(١) انظر ص ٢٢ هامش من الجانب الإلهى من التفكير الفلسفى د / محمد البهى دار الكتاب العربى بالقاهرة عام ١٩٦٧ .

(٢) ص ٥١ فى كتابه « الاسلام » طبع عام ١٩٢٣ نقلا عن المرجع السابق .

البنيان أو نظرة فكرية عميقة للانسان والكون والحياة ، أو حلول صائبة لما واجه حياتهم ومجتمعهم من مشكلات وأن ما عرف عن العرب من فكر فهو حكم قليلة مفككة ، ووصايا تحمل نصائح خلقية وهي دائما خالية من البحث والتعليل ، تمثل - في تفككها وبعدها عن ربط النتائج بالمقدمات - تفكيرا فطريا لا يرتفع إلى مقام العلم والفلسفة ، بل أن ما يسمى بالفلسفة العربية . ما هو إلا مزيج من أرسطالية .

وأفلاطونية حديثة نقله السريان إلى العرب وانتشر في بلاد بعيدة عن الجزيرة العربية وتحت ظل سلالة العباسيين التي طغت فيها الروح الفارسية يقول رينان :

أنه لمن التخليط القبيح أن يطلق اسم فلسفة عربية على مجموعة من الأفكار والآراء التي نشأت بمثابة ردة فعل على الروح العربية وذلك في أنحاء من الامبراطورية الاسلامية بعيدة جد البعد عن شبه جزيرة العرب (١) .

ومعنى ذلك : أن العرب في رأي هذا الفريق - لم يصنعوا شيئا أكثر من أنهم حاكوا الافلاطونية الحديثة ورددوها ، وأن الفلسفة العربية - في نظرهم هي الفلسفة اليونانية مكتوبة باللغة العربية ، فالعقلية العربية عقلية متقلبة لا منتجة ، آخذة لا معطية ، مقلدة لا مجتهدة .

وفي كتاب (أبجد العلوم) لحسن صديق خان (وجميع العلوم) (العقلية مأخوذة عن أهل اليونان) (٢) .

---

(١) انظر ص ١٢٥ ج ١ تاريخ الفلسفة العربية : حنا الفاخوري وآخر - بيروت دار الجيل طبعة ثانية عام ١٩٨٢ م .

(٢) ج ١ ص ١٠٤ نقلا عن تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية : مصطفى عبد الرازق ص ٤٠ طبعة ثالثة - القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ولقد شارك فى هذا الرأى فريق كبير من المسلمين والمستشرقين يقول : ابن خلدون فى مقدمته(١) عن العرب : (أن أبتداء أمرهم كان بالسذاجة والغفلة عن الصنائع ويعلل ذلك قائلا : (إنهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل إنتهاب وعيث . . . . . إنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة . . . فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له) .

ويقول القاضى صاعد منكرا ما للعرب من فلسفة (وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز وجل شيئا منه ولا هيأ طباعهم للعناية به ولا أعلم أحد من صميم العرب شهر به إلا أبا يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى وأبا محمد الحسن الهمدانى)(٢) .

ويقول صاحب كتاب فجر الاسلام (٣) :

العربى لم ينظر إلى العالم نظرة عامة شاملة كما فعل اليونان مثلا . لقد ألقى اليونانى — أول ما تفلسف — نظرة عامة على العالم فسأل نفسه كيف يبرز هذا العالم إلى الوجود ؟ أنى أرى هذا العالم جم التغيير ، كثير التغلب أفليس وراء هذه التغييرات أساس واحد ثابت ؟ وإذا كان فما هو ؟ الماء أم الهواء أم النار ؟ . . . .

هذه الأسئلة وأمثالها وجهها اليونانى إلى نفسه فكانت أساس فلسفته ومبناها كلها النظرة الشاملة .

أما العربى فلم يتجه نظره هذا الاتجاه ولا بعد الاسلام ، بل كان

---

(١) ص ٢٦٢ مكتبة المثنى — بغداد ، طبعة أوفست .

(٢) طبقات الأمم ص ٧٠ صاعد الأندلسى — مطبعة دار السعادة ، مصر .

(٣) الأستاذ أحمد أمين ص ٤١ ، ٤٢ طبعة سادسة .

يطوف فيما حوله ، فإذا رأى منظرا أعجبه تحرك له وجاش صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو المثل . . . . أما النظرة الشاملة والتحليل الدقيق لأسسه وعوارضه ، فذلك ما لا يتفق والعقل العربي) .

وهـــذا أيضا هو رأى الدكتور / عبد الرحمن بدوى حيث يقول :

الفلسفة منافية لطبيعة الروح الاسلامية ، ولهذا لم يقدر لهذه الروح أن تنتج فلسفة ، بل ولم تستطيع أن تفهم روح الفلسفة اليونانية وأن تنفذ إلى لبابها وإنما هي تعلقت بظواهرها ولم تكن عند واحد من المشتغلين بالفلسفة روح فلسفة بالمعنى الصحيح (١) . ويسير الدكتور على سامى النشار – على هذا الرأى كذلك فيقول :

أما العقلانية التى لدى فلاسفة الاسلام المشائين أو الافلاطونيين المحدثين فقد كانت عقلانية متبعه . . . مازلت أقول :

إن الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد (مقلدة اليونان) والمقلد غير عقلانى (٢) .

ويبين صاحب كتاب : (دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية) الأسباب والعلل التى كانت وراء جهل العرب بالفلسفة فيقول (٣) :

---

(١) انظر مقدمة كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية للدكتور / عبد الرحمن بدوى .

(٢) انظر ص ١٨ جـ ١ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام (مقدمات) طبعة سابعة .

(٣) الأستاذ / عبده الشمالى ص ٩٤ ، ٩٦ طبعة خامسة عام ١٩٧٩ ، بيروت ، دار صادر .

(وقد تبين للمدققين أن جهل العرب للفلسفة والعلوم ليس ناشئاً عن العنصرية نفسها، إنما كان وليد عوامل متعددة أوجدتها البيئة وطبيعة الصحارى. منها أن حياة الحل والترحال التى تضت بها تربة الجزيرة المجدبة وأرضها العطشى جعلت تفكير الجاهلى سطحياً، مفككاً، ونفسه قصيراً متقطعاً يتقطع أقامته حلا وترحالا، لأنه كان مضطراً إلى التنقل طلب للنجعة والكلأ فإذا عن له أن يبحث فى موضوع اضطر بعد قليل إلى إهمال موضوعه ليصد غزوة تعرض لها، أو يهيء غزوة تنيله خيرات وتضمن لابله مرتعا خصباً وموردا عذباً. والفلسفة تحتاج إلى طول اختيار وعمق تفكير ودقة تحليل.

عين عالقة بالأرض :

وحياة الحل والترحال هذه جعلت صاحبها الجاهلى يتعرض لمناظر من الطبيعة متعددة فيتأثر بها وتسترعى إنتباهه فيهتم بتسجيل ما يرى دون البحث فيه فأصبحت عينه عالقة بالارض وسيطرت المادة على تفكيره وخياله واشتهر بدقة الملاحظة وعجز عن التحليق فى سماء الروحانيات والإهتمام بالدروس النظرية التى تحتاج إلى عقل رصين ناضج ومجتمع راق ثابت.

ضعف عناصر الكآبة :

والكآبة شرط أساسى لظهور التفكير العميق، فالفيلسوف يتولد تفكيره غالباً عن شكه وخصوصاً عن انقباضه واكتئابه فيبتعد عن الملذات والاستمتاع بها لينصرف إلى البحث والاستنتاج، وهذا العنصر (عنصر الكآبة) كاد يكون مفقوداً فى العصر الجاهلى لسيطرة الحرية والروح

الفردية وشعور القوة . . . وكل يعد نفسه قوياً ولو — في حالات معينة — يشعر بأنه قادر على نيل مبتغاه دون رادع من دين ولا وازع من قانون .

وان كان هناك بعض أفراد تعرضوا للكآبة فإنهم أقلية ، وقد أثرت كآبتهم في كلامهم إشعاعاً ضئيلا ما لبث أن خبأ ، والإنقباض يجب أن يكون مستمراً وشائعاً ليستمر التفكير ويتسم بالعمق والاستقصاء .

تأثير المناخ :

وتأثير المناخ أدى إلى فقدان الكآبة ، أساس التفكير الفلسفي ، وقد أقر علماء الاجتماع في كل عصر بأن المناخ عامل أساسي في خلق الفلسفة وإنماء التفكير الإنساني وإضعافه ، وبينوا أن سكان الأقاليم الحارة المناخ سطحيو التفكير ميالون إلى الطيش والخفة والمرح ويستسلمون لأهوائهم وملذاتهم وشهواتهم ويسيطر عليهم التفاؤل فلا يحسبون لندم حساباً ، لأنهم يعيشون ليومهم لا يعرفون للهم والكآبة معنى إلا نادراً ووقتياً ولا يتعمقون في التفكير العميق .

أما أبناء البلاد الباردة فإنهم ينقبض فيهم الروح الحيواني ، وتضعف شهواتهم ويسيطر عليهم التشاؤم وبرافقه بعد النظر والهم فيغوصون في أعماق نفوسهم ويفكرون في المستقبل ويحاولون تعليل كل ظاهرة ويتصفون بالتفكير الرصين العميق .

وقد حالت هذه العوامل بين العربي والفلسفة ، فلم يعرف الجاهليون الفلسفة لا نقلا ولا وضعاً وإن كانوا قد عرفوا كثيراً من ألوان الحضارتين اليونانية والفارسية في مداخل الجزيرة وأطرافها وفي بلاد الشام والعراق

هذه بعض آراء من أرخ للفلسفة الإسلامية من المسلمين وهى نفسها آراء كثير من المستشرقين يقول: الأستاذ « سانتلانا » (إن العلوم الإسلامية مؤسسة منذ بدء نشأتها على علوم اليونان وأفكار اليونان ، بل وعلى أوهام اليونان (١) .

ويقول « شمولدرز الألمانى » انا لا نستطيع أن نتحدث عن فلسفة عربية كما نتحدث عن فلسفة يونانية وألمانية ومهما ذكرنا هذه العبارة فأننا لا نريد شيئاً غير الفلسفة اليونانية كما فهمها العرب (٢) .

ويقول « دى بور » :

(ظلت الفلسفة العربية على الدوام فلسفة إنتخابية عمادها الاقتباس العرف مما ترجم من كتب الأغريق وجرى تاريخها أدنى أن يكون فهما وتشربا لمعارف السابقين لا إبتكاراً ولم تتميز تمييزاً يذكر عن الفلسفة التى سبقتها لا بإنتاج مشكلات جديدة ولا هى استقلت بجديد فيما حاولته من معالجة المسائل القديمة ، فلا نجد لها فى عام الفكر خطوات جديدة تستحق أن – نسجلها لها . . . ونكاد لا نستطيع أن نقول أن هناك فلسفة إسلامية بالمعنى الحقيقى لهذه العبارة (٣) .

---

(١) انظر ص : ٤٥٤ من التفكير الفلسفى فى الاسلام للدكتور / عبدالحليم محمود طبعة أولى ١٩٧٤ دار الكتاب اللبنانى – بيروت :

(٢) شمولدرز (المذاهب الفلسفية عند العرب) نقلا عن د/ مدكور ص ٣٢٥

(٣) انظر ص ٣٤ تاريخ الفلسفة فى الاسلام لدى بور ترجمة أبو ريدة .

ويقول « تنمان »:

يكاد يكون أرسطو مع شراحه إلى فيلوبنوس من بين سائر الفلاسفة هو الذى استرعى أنظار العرب وقد تلقوا جملة ما ألفه أرسطو ولكنهم تلقوها على الحقيقة عن تراجم ناقصة جداً بوساطة خادعة هى وساطة المذهب الأفلاطونى الجديد ، وأضافوا إلى هذا دراسة العلوم الرياضية والتاريخ الطبيعى والطب لكن عدة عقبات ثبطت تقدمهم فى الفلسفة وهذه العقبات هى :

١ — كتابهم المقدس الذى يعوق النظر العقلى الحر .

٢ — حزب أهل السنة وهو حزب مستمسك بالنصوص .

٣ — أنهم لم يلبسوا أن جعلوا لأرسطو سلطاناً مستبداً على عقولهم ، وذلك إلى ما يقوم دون حسن تفهمهم لمذهبه من العقبات .

٤ — ما فى طبيعتهم القومية من ميل إلى التأثير بالأوهام .

من أجل ذلك لم يستطيعوا أن يصنعوا أكثر من شرحهم لمذهب أرسطو وتطبيقه على قواعد دينهم الذى يتطلب إيماناً أعمى[1] .

ويعلل أرنست رنيان الفيلسوف الفرنسى جهل العرب بالفلسفة إلى أنه يعود إلى ساميتهم فيقول :

(ما يكون لنا أن نلتمس عند الجنس السامى دروساً فلسفية ومن عجائب القدر أن هذا الجنس الذى استطاع أن يطبع ما أبتدعه من الأديان

---

(١) نقلاً عن التمهيد لمصطفى عبد الرازق طبعة ثالثة ١٩٦٦ . انظر د/سليمان دنيا فى نشأة الفكر الفلسفى الاسلامى .

بطابع القوة فى أسمى درجاتها لم يشعر أدنى بحث فلسفى خاص وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباساً صرفاً وتقليداً للفلسفة اليونانية[١].

ويقول « جوتييه » :

والعقلية السامية تميل إلى قرن الأشباه والأضداد دون ربطها بما يجعل منها وحدة ، بل تتركها منفصلا بعضها عن بعض ، ثم تنتقل من أحدها إلى الآخر — دون واسطة — بوثبة فجائية ، أما العقلية الآرية فالأمر بالعكس إذ أنها تنزع إلى الربط بين هذه وتلك بوسائط متدرجة فلا تنتقل من طرف إلى آخر إلا بدرجات لا تكاد تكون محسأيها بالقدر الممكن ، إنها تسير على نظام الألوان المذابة بعضها فى بعض (٢) .

ويقول الفيلسوف المعاصر برتراند رسل فى كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية »(٣) .

ليس الفلسفة العربية شأن يذكر كفكر أصيل ، فرجالها من أمثال ابن سينا وابن رشد ليسوا إلا شراحاً فى وجوهرهم ومن الممكن القول عموماً بأن الآراء الفلسفية عند العرب ذات الصبغة العلمية مصدرها أرسطو أما مباحثهم فى المنطق وما وراء الطبيعة فصدرها الأفلاطونية الحديثة وفى الطب اقتبسوا معارفهم عن « جالينوس » وفى الرياضيات والفلك من مصادر يونانية وهندية ، وفى دائرة التجربة الدينية ذات الصبغة الصوفية تظهر فى مباحثهم أثر عقائد الفرس القديمة بوضوح .

نخلص من هذا كله إلى أن المستشرقين ومن فتن برأيهم يرجعون جهل

---

(١) ص١٧٥ : من المرجع السابق .

(٢) المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية ص ١٠٥ تأليف ليون جوتييه ترجمة د / محمد يوسف موسى دار الكتب الأهلية طبعة أولى ١٩٤٥ .

(٣) ص : ٥٠٣ طبعة ثانية (التراجم العربية) .

العرب بالفلسفة إلى :

(ا) الجنس السامى .

(ب) البيئة والجهل والحياة البدوية والترحال .

(جـ) حياة المرح وعدم الكآبة وعـــدم النظر فى مستقبلهم والتخطيط له .

(د) كتابهم المقدس الذى يعوق النظر العقلى الحر .

(هـ) طبيعتهم التى تتقبل الأوهام وتسير وراء الخرافات .

(و) حزب أهل السنة لتمسكه بالنصوص .

تعصب بغيض :

وهكذا جرد المستشرقون ومن تابعهم من المسلمين ـ العرب كافة والمسلمين كافة ـ من كل إبداع فلسفى أو تفكير عبقرى أو إبتكار عقلى ذلك لأن العرب ـ فى نظرهم ـ جنس سامى قد فطروا على غريزة التوحيد والبساطة والعقل السامى ـ فى رأيهم ـ لا طاقة له إلا على إدراك الجزئيات والمفردات منفصلا بعضها عن بعض ، أو مجتمعة فى غير ما تناسب ولا انسجام ولا ترابط ، فهو عقل مباعدة وتفريق ، لا مقاربة وتجميع .

أما العقل الآرى ـ وهم منه ـ فهو على العكس من ذلك : أنه يؤلف بين الأشياء ويربط بينها فى تناسق عجيب ، أنه عقل جمع ومزج ، عقل مبتكر ، مبتدع ، مخترع .

أما العقل السامى : فهو عقل تقليد ومتابعة ، فهو بطبيعته كذلك وسيبقى كذلك أبدا .

إن العقل الآرى ـ فى زعمهم ـ له ميزات وخصائص تختلف عن

العقل السامى ، وهذه المميزات تتناول كل شىء فى عالم الحياة .

يقول « جوتيه » :

(فى كل مظاهر النشاط الإنسانى من أدناها كمسائل الطعام واللباس إلى أعلاها كالنظم السياسية والإجتماعية تتجلى فى الجنس الآرى من ناحيته . والجنس السامى معتبرا فى أخلص أنواعه أى النوع العربى — نزعات أصلية متقابلة ، العقل السامى يجمع بين الأشياء متناسبة وغير متناسبة مع تركها منفصلة بلا رباط يصلها ، متنقلا بينها بوثبات مباغتة لا تدرج فيها .

أما العقل الآرى : فعلى عكس ذلك ، يؤلف بين الأشياء بوسائط تدريجية لا يتخطى واحدا منها إلى غيره إلاعلى سلم متدانى الدرج لا يكاد يحس التنقل فيه)(١) .

تعقيب :

يقول العلامه ابن خلدون « فى مقدمته » :

اعلم أن العلوم التى يخوض فيها البشر ويتداولونها فى الأمصار تحصيلا وتعليما على صنفين :

صنف طبيعى للإنسان يهتدى إليه بفكره ، وصنف نقلى يأخذه عمن وضعه .

والأول : هى العلوم الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن

---

(١) انظر : ص ٢٢ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . مصطفى عبد الرازق .

يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها ، من حيث هو إنسان ذو فكر .

والثاني : هي العلوم النقلية ، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها إلى الأصول (١) .

فالنظر الفلسفي ـ كما يقرر ابن خلدون ـ ليس وقفا على شعب دون شعب ، أو أمة دون أمة ، بل هو أمر طبيعي يهتدى إليه الإنسان بمداركه البشرية التي منحه الله إياها والتي تميزه عن باقي الكائنات الحية ، ومن حيث أنه إنسان مفكر .

إن الناس كلهم والأجناس جميعها ـ عند ابن خلدون ـ سواء من ناحية قدرة أفرادها على النظر الفلسفي ، أو على الأقل من ناحية إمكانية هذا اللون من النظر عندهم ، ولا مجال بعد هذا القول . كما يقول صاحب كتاب « محاضرات في الفلسفة الإسلامية » (٢) بوجود صفات عقلية موروثة في شعب من الشعوب تمنع أفراده من البحث في العلوم العقلية .

أجل قد تتفاوت أبحاث ونتاج العقول الإنسانية قوة وضعفا في

---

(١) انظر المقدمه ص ٤٣٥ لابن خلدون الباب السادس الكتاب الأول الفصل السادس طبعة مصطفى محمد .

(٢) د / يحيى هويدى ص ٩ مكتبه النهضه المصرية عام ٦٥ ، ١٩٦٦ .

المجال الفلسفي ، ولكن هذا يرجع إلى ازدهار البيئة الاجتماعية والعقلية التي قيض لشعب من الشعوب أن يوجد فيها ، فساعدته على تنمية ما لديه من إمكانية النظر العقلي ، وإلى انحطاطها في حياة شعب آخر مما أدى إلى وقوفه عند حد متواضع في انظاره الفلسفية ، وهذا لا يعني أن هذا الطراز الأخير من الشعوب أقل في امكانية تفكيره الفلسفي من النوع الأول .

ونحن أبناء القرن العشرين لا نؤمن ولا ينبغي لنا أن نؤمن بوجود هذا السلم الذي طاب لبعض الساسة والمفكرين أن يضعوا في أعلى درجاته شعوبا وأجناسا بعينها وطاب لهم أن يضعوا شعوبا وأجناسا أخرى في أحط درجاته ، بل نؤمن بأن الشعوب كلها سواء في قدرتها على التفكير بجميع ألوانه بما في ذلك التفكير الفلسفي المنظم(١) ومن ثمة .

فلقد تعسف المستشرقون - ومن دار في فلكهم - عندما جردوا مجتمعا إنسانيا من كل فكر فلسفي أصيل وأرجعوا كل فكرة إسلامية إلى منبع يوناني أو غير يوناني .

ودليل تعسفهم هو كما يقول صاحب كتاب : « التفكير الفلسفي في الإسلام »(٢) .

---

(١) ص ١٠ : محاضرات في الفلسفة الاسلامية ، د . يحيى الهويدي .

(٢) د / عبد الحليم محمود ص ٢٦١ ، طبعة أولى ١٩٧٤م دار الكتاب بيروت .

إن النفس الإنسانية إما أن تكون — بحسب الاحتمالات العقلية — خالدة وإما أن تكون فانية، وليس هنالك رأى ثالث، ولا مناص من أن يقول المفكر بهذا أو ذاك.

فإذا ما قال أحد فلاسفة الإسلام بأن النفس خالدة، وهى الفكرة التى نشىء عليها طفلا ويافعا وشابا .... سارع مؤرخو الفلسفة وقالوا: إنه أخذها عن أفلاطون.

وإذا انحرف به تفكيره فقال: إن النفس فانية سارع مؤرخو الفلسفة وقالوا إنه أخذها عن أرسطو.

سقوط دعوى التعصب العنصرى :

إن هذه الأحكام التعسفية التى صدرت عن «ارنست رينان» ومن شابهه والتى يستند فيها من جهة إلى اعتبارات عنصرية أقل ما يقال فيها الآن إن العلم الحديث لا يقرها ولذا فقد تلاشت فى القرن العشرين فكرة إقحام السامية والآرية فى الحكم على الفلسفة الإسلامية وذلك بحكم تقوض نظرية السامية والآرية نفسها وضعف سندها العلمى.

ولم تكن نظرية العنصرية أو نظرية الجنس وليدة العصر الحديث بل ترجع هذه النظرية إلى العصور القديمة وتستمد مقوماتها من التعاليم القديمة التى كانت تؤيد فكرة التمييز أو التفوق العنصرى فقد ميز «أرسطو» بين اليونان وغيرهم من الشعوب واعتبر اليونان أحرارا أعطتهم الطبيعة قوة العقل والجسد، أما غيرهم فحظهم من العقل قليل ولذلك فإن الشعب اليونانى هو الشعب المختار وهو الشعب الوحيد الذى

ينبغي أن يسود غيره من الشعوب وبذلك يكون « أرسطو » أول من أيد في التاريخ خرافة الشعب المختار أو الشعب السيد ، وانتقلت هذه الفكرة إلى الرومان فقد اعتبروا أنفسهم الشعب المختار الذى يجب أن يسود العالم بأسره وانطلاقاً من هذه الفكرة إستعمروا كثيراً من الدول وكونوا إمبراطورية واسعة النطاق .

ثم عادت هذه النظرية إلى الظهور فى العصور الحديثة مؤيدة بمزاعم تاريخية ، الهدف منها تبرير الحروب وتأييد الاستعمار ، واتخذت أوربا ما وصلت إليه من حضارة كدليل على فكرة التمييز والتفوق العنصرى واحتضن الألمان هذه النظرية نزعموا أن العنصر الجرمانى هو الجنس الممتاز والشعب الألمانى هو شعب الله المختار وهو الذى أنشأ الحضارة الأوربية وعللوا إنهيار حضارة الإغريق والرومان بامتزاج الأجناس التى أنشأت هذه الحضارة بأجناس غريبة عنها .

وقد ظهر فلاسفة تبنوا هذه النظرية وقالوا بالبقاء للأصلح ومجدوا استعمال القوة كى يحققوا آمالهم فى السيطرة والبقاء ومن هؤلاء الفلاسفة « فخت » و « هيجل » و « نيتشة » الفيلسوف الألمانى الذى كان أقوى المدافعين عن هذه النظرية ووضع نظرية الرجل الكامل الذى يتفوق ويسود ، وقد تبلورت نظرية التفوق العنصرى وما تحمله من تمجيد للقوة وإبداع للعقل فى الفلسفة النازية الذى ذهب بها نحو التطبيق الفعلى زعيم المانيا الراحل « أودلف هتلر » .

وكان شعار النازية « المانيا فوق الجميع » ونص فى دستورها على سيادة العنصر الألمانى ويخصص هتلر فى كتابه « كفاحى » جزءاً كبيراً

لنظرية الجنس و يبين خار الجنس اليهودى وخواصه الخسيسة المنحطة .

هذا و تذهب الصهيونية بأن اليهود هم شعب الله المختار و ينبغى أن يسيطروا على العالم كله

ولا تزال بعض الدول إلى الآن تضطهد السود وزنوج أمريكا خير مثال على ذلك ، فانهم قد حرموا من المشاركة فى مرافق الحياة .

ومن المساواة أمام القانون فى كثير من الحالات[1] .

وهكذا استغلت نظرية الجنس أو بتعبير أدق خرافة العنصرية إستغلالا سيئاً لخدمة الإستغلال والاستعمار ولهـــذا وجهت إليها إنتقادات أهمها :

١ — ليس هناك تفسير علمى على انفراد جنس بالسمو على غيره ، وعلى تفسير الحضارة على أساس الجنس .

٢ — لا يوجد جنس خالص نقى ، فالأجناس مختلطة إختلاطاً كبيراً يصعب معه تمييز جنس على جنس .

٣ - ليس هناك دليل على أن شعبا استطاع — وهو فى عزلة عن الشعوب الأخرى - أن يبدع حضارة أو ينشىء مدنية مميزة فى ذاتها فالأثر والتأثير حقيقة واقعة وقضية معترف بها .

---

(١) انظر ص ١١٨ وما بعدها د / مصطفى الخشاب علم الاجتماع ومدارسة بتصرف طبعة ثانية ١٩٥٦م وانظر ص ٤٧ ج ٢ د / عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي فى الإسلام طبعة رابعة عام ١٩٧٧ .

ثم — إن البلاد التي عاشت في عزلة أصابها الجمود والتأخر بخلاف البلاد التي اتصلت بغيرها وأعطتها وأخذت منها .

٥ — إن الحضارة لم تكن في يوم من الأيام لأمة بعينها ، بل هي ملك الإنسانية كلها ، تضع فيها كل أمة لبنة حتى اكتمل بناؤها الكبير .

وهكذا أصبحت نظرية الجنس ـ أمام الحقائق العلمية والواقع التاريخي والباحثين المنصفين ـ لا قيمة لها ولا وزن لها ومن يستند عليها ـ في حكم من الأحكام ـ يكون قد اعتمد على وهم خادع وسراب مضلل ، ومن ثمة فلا قيمة لرأي أو حكم ينشأ فوق سراب ليس فيه من الحقيقة شيء .

كما استند كذلك في حكمه إلى نتف من المؤلفات العربية أو المخطوطات اللاتينية المترجمة عنها ، لا تعبر عنها ، ولا عن حقيقة الفكر الإسلامي في أصوله الكاملة ومصادره الأولى ، وأدت إلى أحكام سريعة ناقصة لا تخلو من التناقض الفاضح أحياناً ، فإن « رينان » ذاته بعد أن أنكر وجود فلسفة عربية عاد فأقر بأن للعرب فلسفتهم الخاصة حيث يقول :

(اتخذ العرب من تفسير آراء أرسطو وسيلة لإنشاء فلسفة ملأى بالعنصر الخاص المخالفة جد المخالفة لما كان يدرس عند اليونان وكذلك فعل فلاسفة القرون الوسطى) .

ويقول في موضع آخر :

(إن الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام ينبغي أن تلتمس

فى مذاهب المتكلمين[١]).

ويقول العلامة الأمريكى «درابر» فى كتابه النزاع بين العلم والدين :

تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء فيعتقد أنها لم تولد إلا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العنصرية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فإن هذا الرأى كان مما يعلم العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون إلى أبعد ماذهبنا ، فكان عندهم يشمل الكائنات العضوية والمعادن والأصل الذى يثبت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها وليس حجر الفلاسفة الذى كان المنبه والهدف الأول لفلاسفة القرون الوسطى ، هذا الحجر الذى يحيل المعدن الخسيس الى معدن نفيس إلا تطبيقا لهذه الفكرة[٢]).

(١) انظر ص ١٢٦ ١٢٧ ج١ من تاريخ الفلسفة العربية — حنا الفاخورى وآخر طبعه ثانية ، دار الجيل بيروت وص ١٢ من تمهيد لمصطفى عبد الرازق.

(٢) انظر ص٣٦ - ٣٢ د/ كمال جعفر : فى الفلسفة الإسلامية عام١٩٧٦م .

وليس « رينان » وحده هو الذى يعود إلى الحق ويقرر الواقع بل إن الأستاذ « دوجا » يعترف بالوضع الصحيح ويعبر عنه بلى صورة أسئلة يقول :

هل يظن ظان أن عقلا كعقل ابن سينا : لم ينتج فى الفلسفة شيئاً طريفاً وأنه لم يكن الا مقلداً لليونان ؟ وهل مذاهب المعتزلة والأشعرية ليست ثماراً بديعة أنتجها الجنس العربى ؟(١).

ويقول الأستاذ « كاردانوس » وهو فيلسوف ورياضى إيطالى — عن الكندى أنه واحد من بين الاثنى عشر الممتازين فى العالم.

ويقول الأستاذ « ملت » عن ابن خلدون :

إن أفلاطون وارسطو وأوجستين ليسوا نظراء لابن خلدون وكل من عداهم غير جدير حتى بأن يذكر إلى جانبه(٢).

ويقول « منك » :

يمكننا أن نقول فى الجملة أن الفلسفة لدى العرب لم تتقيد بمذهب المشائين صرف، بل هى توشك أن تكون تقليباً فى كل الأطوار التى

---

(١) ص ٢٣ مصطفى عبد الرازق فى تمهيد.

(٢) محمد اقبال : تجديد الفكر الدينى ترجمة عباس العقاد نقلا عن ص ٢٣٢ د/ عبد الحليم محمود التفكير الفلسفى فى الاسلام .

مرت بها فى العالم المسيحى ، ففيها مذهب أهل السنة الواقفين عند النصوص ومذهب الشك ، ومذهب التردد ، بل فيها مذاهب شبيهة بمقال « اسبينوزا »(١).

ويقول الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده بحق :

فمهما بدا من شبه بين آراء مفكرى الإسلام وآراء غيرهم ممن سبقهم أو عاصرهم ، فإن آراء الإسلاميين لها طابعها الخاص ولها مكانتها فى نظام واسع بحيث لا يصلح النظر إليها منعزلة ، بل من حيث صورتها الخاصة وعلاقتها بغيرها ، ووظيفتها فى جملة البناء الفكرى عند أصحابها ، ويجب على الباحث أن يراعى ذلك . لأنه ليس فى تاريخ الفكر الصحيح تقليد فلا يوجد فى التاريخ فيلسوف أرسطوطاليس خالص ولا فيلسوف أفلاطونى خالص ، والفكرة الفلسفية عندما تنتقل إلى بيئة ثقافية أخرى وتدخل فى نظام فكرى جديد تتغير من وجوه شتى وهى فى هذه الحال ليست ملكا لأهلها الأولين بل ملكا لأصحابها الجدد الذين اتخذوا منها نقطة بداية لنزعات جديدة تناسب روحهم وجملة تفكيرهم الفلسفى(٢).

ويقول صاحب كتاب « فى الفلسفة الإسلامية »(٣)

ان الفلسفة الإسلامية ذات طابع خاص وشخصية مستقلة أخص خصائصها التوفيق والإختيار ، توفق بين النقل والعقل ، وتواخى بين

---

(١) ص : ١٣ مصطفى عبد الرازق فى التمهيد .

(٢) رسائل الكندى الفلسفية عن ص : ٢٧١ التفكير الفلسفى د . عبد الحليم محمود .

(٣) الدكتور ابراهيم مدكور ص : ١٩ .

الدين والفلسفة ذلك لأن فلاسفة الإسلام يرون أنه يمكن كشف الحقيقة من طرق شتى وبوسائل متعددة، فيقودنا إليها المنطق والبرهان، كما يهدينا نحوها الوحي والإلهام.

وهكذا سقطت - وإلى الأبد - هذه الدعاوى التي تقول:

أن الفكر الفلسفي الإسلامي جاء تقليدا ومتابعا للفكر اليوناني وكان خلوا عن الإبداع والإختراع والابتكار واعترف المستشرقون وغيرهم من المنصفين - للحق والتاريخ - أن للفلسفة الإسلامية طابعا خاصا ومقدرة فائقة على الإبداع والتعليل وربط النتائج بالمقدمات، وأن رجالها العظام شاركوا في تشييد صرح الفكر الإنساني وإثراء "العقل العالمي بما جادت به قرائحهم من آراء جديدة ونظريات فريدة عليها سمات الإبداع والإبتكار وكذلك قد تلاشى القول وإلى الأبد أيضا بأن "الفلسفة الاسلاميه ليست إلا صورة مشوهة من مذهب أرسطو ومفسريه وأصبح في حكم السلم كما يقول صاحب «تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية»[1].

« أن للفلسفة الاسلامية كيانا خاصا يميزها عن مذهب أرسطو ومفسريه فيها عناصر مستمدة من مذاهب يونانية غير مذهب أرسطو، وفيها عناصر ليست يونانية من الآراء الهندية والفارسية، ثم أن فيها ثمرات من عبقريات أهلها ظهرت في تأليف نسق فلسفي قائم على أساس من مذهب أرسطو مع تلافي ما في هذا المذهب من النقص باختيار آراء من مذاهب أخرى بالتخريج والإبتكار وظهرت أيضا في بحوثهم الصلة بين الدين والفلسفة.

---

(١) الأستاذ الأكبر المرحوم / مصطفى عبد الرازق ص: ٢٥.

خطأ المستشرقين :

أننا نرى أن الأحكام التعسفية التي صدرت عن طائفة من الباحثين الغربيين ترجع إلى جملة من الأسباب منها :

أولا : أن البعض من هؤلاء ليسوا فلاسفة بالمعنى الدقيق ، بل هم مؤرخون للفكر الفلسفي ومن ثمة فان من المحتمل أن يفوتهم تقدير الكثير من عناصر الإبتكار والأصالة التي تميز الفكر الإسلامي ، او أن البعض من هؤلاء فلاسفة حقا أمثال « برتراندرسل » يتذوقون الفلسفة ومن السهل عليهم الوقوف على الجوانب الأصلية في أي فكر يؤرخون له وتقدير عناصر الإبداع فيه إلا أنهم غرباء عن التراث الإسلامي فلم يدرسوه دراسة المختص ليقفوا على أصوله وجذوره البعيدة ولم يفهموا اللغة العربية ليدركوا المعاني الباطنية للنصوص الفلسفية[1].

ثانياً : لقد نظر بعض هؤلاء الباحثين إلى الفلسفة بالمعنى الضيق وفهموها انتاجا عقليا ذاتيا مستقلا يظهر في صورة مذهب فكرى متآلف منسجم ونظرة كلية شاملة . أما الأساس اليوم في تحديد الفكر الفلسفي فقد اتسع مدلوله وصار يشمل الحياة العقلية والروحية بل وكل جهد عقلي يستهدف الكشف عن حقيقة جديدة أو تقديم منهج صحيح قوامه الإستقصاء والتحرى والنقد والنظر . يقول الأستاذ « ريتشارد والتزر » :

الحق أننا كلما إزددنا معرفة بتاريخ البشر إزددنا إدراكا بأنه لا يوجد خلق ذاتي في التاريخ ، وإنما هو عطاء أشكال جديدة لمواد كانت موجودة

---

(١) انظر ص١٢ من الفلسفة في الإسلام د / عرفات عبدالحميد ـ دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع بغداد .

من قبل ، والفلسفة الإسلامية مثال ممتع لهذه العملية التي يقوم عليها استمرار الحضارة البشرية[1] .

ثالثاً : نظر المستشرقون إلى الفلسفة الإسلامية من خلال نظرية الجنس – السامي والجنس الآري وراحوا يتصورون مميزات لكل جنس – من محض خيالهم – لا سند لها من الواقع أو من التاريخ ، وليس لديهم إثارة من علم أو دليل ينهض على دعم مزاعمهم في تفوق جنس وانحطاط جنس آخر وإنما هو التعصب الأعمى الذي دفع رجلا مثل « كوزان » لأن – يقول (المسيحية هي أصل الفلسفة الحديثة وأن الدين المسيحي ناسخ لجميع الأديان ... أما الأديان الأخرى التي ما زالت موجودة مثل البراهمية والإسلام فلم تقدم في رأيه شيئا للحضارة اللهم إلا الإنحلال والإستبداد)[2] ومن هنا كان إصدار هذه الأحكام وكأنهم أحاطوا علما بكل ما أنتجه العقل الاسلامي مع أنه من المحقق أن معرفتنا الحالية بهذا الفكر لا تزال ناقصة مبتورة ، ولذلك لا يمكن إصدار حكم نهائي بهذا الجزم كما فعل المستشرقون ، والوقت لم يحن بعد – على حد تعبير الأستاذ « فالتزر » لكتابة تاريخ نهائي للفلسفة الإسلامية فلم تصل معرفتنا لهذه الفلسفة درجة من النضج والإحاطة تسمح لنا بالقيام بمثل هذه المحاولة الضخمة ، فهناك حقائق عديدة ما زالت مجهولة ، وهناك مؤلفات عديدة أهملت قرونا ولم يتنبه لها الباحثون إلا حديثا ، فأخذوا يدرسونها

---

(١) الفلسفة الاسلامية ومركزها في الفكر الانساني ص٢٤ خالدسوريتشارد ترجمة محمد توفيق حسين وانظر ص ٧٤ من الفلسفة الاسلامية د / عرفان عبد الحميد .

(٢) ص : ٨ من تمهيد ، وانظر ص ٢٦٨ د / يحيى هويدى : محاضرات في الفلسفة الاسلامية : مكتبة النهضة .

ويعرفونها شيئا فشيئا ، ولم يتفق الباحثون على أحسن الطرق لدراسة هذا الموضوع(١) .

سقوط دعوى حياة الترحال والعزلة :

وإذا كانت مزاعم التفوق العنصرى قد سقطت ، فقد تلاشت أيضا دعوى أن العرب فى جاهليتهم كانوا أجهل الناس لطبيعة أرضهم ومناخهم وحياة الترحال التى فرضت عليهم ، والتى دفعتهم إلى دائرة الجهل والتدهور الخلـــقى والدينى ، وحرمتهم من الاقتراب من رحاب الفكر المنظم الدقيق .

فقد عنى كثير من الباحثين — وما زالوا — بجلاء ما غمض من تاريخ الفكر العربى فى العصر الجاهلى واستندوا إلى الآثار القديمة التى كشفتها الحفريات حديثا وإلى ما دلت عليه من رقى سكان الحواضر فى الجزيرة العربية ورقى مجاوريهم من عبرانيين وأشوريين وسوام ، واستعانوا بما تضمنه الشعر الجاهلى خصوصا من حكم وآراء ، فزعم فريق منهم أن العرب فى جاهليتهم قد أطلعوا على الفلسفة .

والتاريخ يحدثنا أن سكان الجزيرة العربية الأولين عاصروا دولا متمدنة كالفارسية والمصرية ودلت الآثار الأشورية وأظهرت الحفريات الأخيرة وما عثر عليه علماء الآثار من كتابات ونقوش حميرية : أن الجزيرة عرفت مدنية ذلك العصر(٢) .

---

(١) انظر ص ١٠ من الفلسفة الاسلامية ومركزها فى الفكر الانسانى وانظر ص ٢٥ من الفلسفة الاسلامية فى الاسلام د/ عرفان عبد الحميد .

(٢) ص ٨٦ من دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية بتصرف .

وأن الجزيرة العربية عرفت حكماء كقس بن ساعدة صاحب الخطبة العكاظية المشهورة يستمد فيها من مصائر الأمم والملوك عبرا ، ودليله على وجود الله معروف فهو يستدل بالأثر على المؤثر وهو يصف الاله فيقول :

كلا . بل هو الله إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى وإليه المآب غداً .

وأكثم بن صيفي حكيم العرب وكبيرهم وفد إلى أنوشروان وزعيم خطبائهم بين يديه .

وذي الاصبع العدواني الذي تحدث الباحثون عن وصيته لابنه وما تضمنت من سداد رأي ، هؤلاء وأمثالهم تسموا بلقب « حكيم » أطلقه عليهم أبناء ذلك العصر ، ودل ما وصل إلينا من حكمهم ووصاياهم على سداد رأيهم وبعد نظرهم ودقة ملاحظاتهم وحبهم الأخلاق العالية والفضائل الانسانية .

ومن هؤلاء عامر بن الظرب الذي استدل على وجود الله وتصريفه للكون بقوله :

أني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ولا جائيا إلا ذاهبا ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء[1] ولذلك فان صاحب كتاب الملل والنحل يرى أنهم من الفلاسفة يقول الشهرستاني :

---

(١) انظر ص ٢٩ التفكير الفلسفي في الاسلام د/ عبد الحليم محمود .

ومنهم — أى الفلاسفة — حكماء العرب وهم شرذمة قليلة ، لأن أكثر حكمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر وربما قالوا بالنبوات[1] .

وفى موضع آخر يقول :

إن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق واستعمال الأمور الروحانية[2] .

ومعنى هذا أن العرب كالهنود يميلون إلى الأحكام الكلية والأمور العقلية والمجردات ، أى إلى تناول موضوعات الفلسفة وقضاياها[3] .

وإذا كان الشهرستانى قد جعل العرب على قدم المساواة مع الهنود فى القدرة على التفلسف والنظر العقلى المجرد فإن مؤرخا آخر هو تقى الدين أحمد بن على المقريزى صاحب « الخطط » يرى أن للعرب قدرة على التفلسف كغيرهم من الأمم ولكن بدرجة أقل إنه يقول :

واسم الفلاسفة يطلق على جماعة من الهنود والبراهمة ، ولهم رياضة شديدة ، وهم ينكرون النبوة أصلا ويطلق على العرب بوجه أنقص وحكمتهم ترجع إلى أفكارهم وإلى ملاحظة طبيعية ويقرون بالنبوات[4] .

---

(١) الملل والنحل طبعة ليبتك عام ١٩٢٣ .

(٢) الملل والنحل ص ٣ .

(٣) انظر ص١٧ د/ محمد على أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام، دار المعرفة الجامعية .

(٤) ص ١٦٣ ج ١ الخطط للمقريزى .

ويوضح علامة اليمن أبو سعيد نشوان الحميرى ، الخصائص التى يمتاز بها العرب فيقول فى كتابه « الحور العين »[١] :

إن العرب مخصوصة بأمور منها : البيان واللغة وعلوم قيافة الأثر ثم يضيف : « وللعرب من صدق الحس وصواب الحدس وجودة الظن وصحة الرأى ما لا يعرف لغيرهم ، ولهم العزم الذى لا يشبهه عزم والصبر الذى لا يشبهه صبر » والألوسى فى « بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب »[٢] يرى أن العرب أتم الناس عقولا وأكملهم أفهاما (أما كمالهم فى الفهم فلأنهم لا يبارون قوة ذكاء وإصابة حدس وحدة ألمعية وصدق فراسة ، ويبالغ فيقول بل قد وصل العرب فى الفطنة والذكاء وحسن الفهم إلى ما كاد أن يصل إلى الاعجاز ، والعرب عند الألوسى : أحفظ من غيرهم وأقدر على البيان من غيرهم وأشجع من غيرهم ويضيف إلى هذا تفوقهم فى العلوم الرياضية وفى علوم الطب والتجارة[٣] .

---

(١) ص ٢٧١ تحقيق كمال مصطفى مكتبة الخانجى ١٩٤٨ م .
(٢) ص جـ ١ الطبعة الثانية ١٩٢٤م .
(٣) أنظر ص ٢٠ د / يحيى الهويدى محاضرات فى الفلسفة الإسلامية .

العرب والتفكير الفلسفي

هؤلاء الحكماء هم العلماء الذين كان يرجع إليهم فيما يعرض من مشاكل وما يجد من أمور، وكان مثلهم في الحكمة مثل حكماء اليونان. لقد أثرت عنهم الحكم القصيرة التي تركزت فيها التجربة والحنكة وسداد الرأي وبعد النظر مثل «مقتل الرجل بين فكيه» «ومن طلب شيئاً وجده وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه» «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

ولإذا قارنا هؤلاء الحكماء بمن يماثلهم من حكماء اليونان وجدنا أنهم يتشابهون في كثير من النواحي. يقول أفلاطون.

(واجتمعوا — أي الحكماء — في دلف وأرادوا أن يتقدموا لابولون في هيكله بواكير حكمتهم فاختصروه بالآيات التي يرددها الناس الآن: مثل «اعرف نفسك»، و«لا تسرف»، و«الصلاح عسير»[1].

وكذلك عرفت الجزيرة العربية «الشعر» وهو سجل الأمة الذي يحمل نظام عيشها ويوضح سمات حياتها العقلية والفكرية ويسجل آلامها وآمالها ويبين رأيها فيما يحيط بها فالآثار الشعرية هي التي تمثل التفكير الجاهلي خير تمثيل، لأن شعراء العرب في الجاهلية هم (مفكروهم) ولقد بزغ في سماء الجزيرة العربية كثير من شعراء الحكمة والتوجيه فقد كان شعرهم قبساً يضيء للناس طريق الحياة ومن هؤلاء الشعراء على سبيل المثال:

الأفوه اليمني: الذي ظهرت في شعره مسحة إجتماعية ودعا الناس إلى

---

(١) ص ٨ من تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم.

انتقاء حكامهم من أهل الرأي السديد ، وتعريق إعادهم بالتعاون ومساندة الزعماء وأشار إلى أنه اختبر الرجال فتكشفت له أخلاقهم عن وهن وضعفت ثقته بهم — بعد أن بلا هم قرنا بعد قرن فلم ير غير ذى قبل وقال » .

ومن الشعراء « طرفة بن العبد » .

الذى يبدى رأيه فى الموت والحياة واللذة حتى ليخيل إلينا أنه يبشر بالمذهب الفلسفى المعروف بمذهب اللذة وقد اعتنقه فريق من فلاسفة (اليونان الأقدمين منذ القرن الرابع قبل الميلاد ومنهم « أرنصيتب دى سيران » ٣٩٠ ق . م) .

ومنهم زيد بن عمرو وهو من الحنفاء وأحد الذين اعتزلوا عبادة الأوثان وامتنع عن كل ما ذبح باسمها ، وكثيرا ما أنكر على قريش ذبحها على غير إسم الله قائلا :

يا معشر قريش أيرسل الله قطر السماء وينبت بقل الأرض ويخلق السائمة فترعى فيه وتذبحونها لغيره ؟

وكان كثيراً ما يترنم بهذه الأبيات .

أسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما استوت شدها سواء وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا

وهو القائل :

أرباً واحداً أم ألف رب   أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً   كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها   ولا صنمى بن عمرو أزور
ولكن أعبد الرحمن ربى   ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها   متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الابرار دارهم جنان   وللكفار حامية سعير

ومن الشعراء أمية بن الصلت الذى نظم قصائد حكمية ودينية ذكر فيها يوم البعث وأحواله وأقر بوحدانية الله ووصف السماء والارض والجنة والنار وتحدث عن الملائكة والانبياء وفناء العالم .

ومن الشعراء كذلك زهير بن أبي سلمى ، ذلكم الشيخ الحكيم الذى خبر الدنيا وعرف دخائلها والذى يتميز بعدة آراء تدعو إلى تعظيم القوة وتمجيدها أو تحث على التشاؤم أو تدفع الناس إلى التعاون وهذه الآراء وأمثالها تعتبر دون شك — نواة أو بدايات لمذاهب كثيرة : كمذهب الفائدة العامة الذى اشتهر به فى القرن التاسع عشر « بانتام » الانجليزى ، ودعا الإنسان إلى مساعدة أخيه ليشعر بلذة السعادة فى هذه الحياة إذا أسعد أخاه وقد قال فى مثل هذا زهير .

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه   إلى مطمئن البر لا يتجمجم

وكمذهب التشاؤم والدعـــوة إلى التخلص من ويلات الحياة ،

وقد انتشر فى أوائل القرن التاسع عشر إذ نادى به الفيلسوف الألمانى « هرتمن » وكان زهير قد سئم الحياة من قبل إذ يقول :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وكمذهب القوة ويمثله « نيتشه » وغيره وكان زهير يقول :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

فهذه نماذج فقط قدمناها ليقف القارىء من خلالها على ما وصل إليه هؤلاء الحكماء والشعراء ، فيرى أنهم قد أنعموا النظر فى الطبيعة واعتقدوا — وجود خالق كامل ، واهتموا بأدب النفس والفضائل الأخلاقية ، وجاروا الفلاسفة وحكماء اليونان فى إيراد الحكم واشتهروا بدقة الملاحظة وصدق الحدس وبعد النظر ، واستدلوا بالأثر على المؤثر مما يرفع شأنهم — أو يكاد — إلى مصاف الفلاسفة .

ومهما قيل عنهم أو قيل فيهم ، وأنهم لا يحاولون التعليل ولا يحاربون الخرافات ولا يفتشون عن الصلة بين المقدمات والنتائج وأن أفكارهم وليدة الفطرة وأثر البيئة وأن عيونهم كانت عالقة بالأرض ، ولم يرتفع تفكيرهم عن المادة إلى الروح وعن الجزئيات إلى الكليات

أقول مهما قيل عنهم فأنهم وصلوا فى آرائهم إلى ما يشبه وضع البذور الأولى لمذاهب فلسفية متعددة فقد أقروا بخلود النفس ويوم الحساب وعدل الديان وقدرته ، وغير ذلك من المعارف تلك التى أفنى كثير من الفلاسفة أعمارهم بحثاً فيها .

كما كان لهم نوع آخر من التفكير العملي دعت إليه حاجة الجماعة البشرية يقول صاحب «طبقات الأمم» بعد أن ذكر معرفة العرب لغتها ونظم الأشعار وتأليف الخطب وعلم السير :

وكان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاييها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة[1] .

وذكر المسعودي في مروج الذهب أسماء أناس من العرب دعوا قومهم إلى الله ونبهوهم على آياته في زمن الفترة كقس بن ساعده الايادي ورئاب الشني وبحيرا الراهب ؛

بل إن أفراداً من العرب قد اتجهوا ببصائرهم النفاذة إلى استشفاف مسار الدين الجديد ، فتكلموا عن البعث والنشور والجزاء الأخروي وضرورة الإيمان بإله واحد خالق الكون وهؤلاء هم طائفة الحنفاء .

والحنفاء هم أفراد من العرب اتضح لهم أن قومهم ضلوا السبيل وانحرفوا عن دين أبيهم ابراهيم ، ومن ثم فقد هبوا لتبصير العرب بالحنيفية الصحيحة ، ولذلك فإن أربعة منهم وهم ورقة بن نوفل وعبد الله ابن جحش ، وعثمان بن الحويرث . وزيد بن عمرو بن نفيل ، قد اجتمعوا في مكة سراً - كما يقول ابن هشام - في يوم تجتمع فيه قريش لتحتفل بأصنامها حيث تنحر الذبائح ويعكف القوم على العبادة والطواف بالكعبة وتباحث هذا النفر في دين قومهم ، واتفقوا على كتمان أمرهم ،

---

(١) صاعد بن أحمد ص ٥٤ طبعة بيروت .

حيث انتهوا إلى نبذ عبادة الأوثان ، بعد أن تبين لهم أن قومهم على ضلال وأنهم أخطأوا دين أبيهم إبراهيم وقالوا :

ما حجر نطوف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ثم تفرقوا فى البلاد يلتمسون الحنيفية أى دين ابراهيم(١) .

بل لقد تنبأ بعضهم مثل ورقة بن نوفل بقرب ظهور نبى جديد يعيد إلى الحنيفية قوتها وأصالتها وذلك على الرغم من أن ورقة قد إلتمس الإيمان فى النصرانية بعد أن تعلم العبرانية واتصل بأحبار اليهود وعرف دينهم(٢) .

ولذلك فإننا لسنا مع الذين يقولون إن الجاهلية مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم ، بل من الجهل الذى يعنى السفه وسرعة الغضب والأنفة وهذا ما نأخذه من قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما(٣) أى السفهاء ومن قول الرسول ﷺ لأبى ذر عندما عير رجلا بأمه (إنك امرؤ فيك جاهلية) ومن قول عمرو بن كلثوم فى معلقته .

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

ورغم وضوح هذا المعنى وثبوته إلا أن كثيراً من المؤرخين يعتقدون أن الفترة السابقة على نزول الوحى كانت فترة جهل لا علم فيها ومن هنا فإن العرب لم يكونوا إلا جماعة من البدو وبعيدين عن العمران الحضرى ،

---

(١) راجع ص ٢٢٧ سيرة ابن هشام

(٢) انظر ص ٣٨ : د . أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام .

فى عزلة فكرية تامة لا إختلاط بينهم وبين سائر شعوب الأرض المتمدينة فى تلك الحقبة من التاريخ وهذا انحراف عن الحقيقة ، فقد ورد عنهم ما يفيد أنهم تكلموا — كما قلنا — فى موضوعات هى من صميم الفلسفة الالهية والطبيعة والانسانية .

فقد بحثوا فى الله وتكلموا عنه وبحثوا فى البعث والحياة الآخرة فمنهم من أنكر وجود الله كما أنكر البعث والنشور ولم يجدوا سببا لهذا الوجود ، إلا الطبع المحيي والدهر المميت ، وهذا ما حكاه القرآن عنهم [وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر][1] .

ومنهم من آمن بالله ولكنه كفر بالبعث وها هو القرآن الكريم يشير إلى هؤلاء حيث يقول [وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم][2] الآيات وبجانب هؤلاء وجد من يؤمن بالله بل ومن يبحث فى النفس الانسانية ويرون أن معرفتها من أرقى المعارف وأفضلها على الاطلاق ولذا نجد قس بن ساعدة عندما سئل عن أفضل المعرفة قال : معرفة المرء بنفسه[3] أليس فى هذا قوة شبه تذكرنا بفلسفة سقراط الفيلسوف اليونانى الشهير الذى كانت فلسفته تدور حول معرفة النفس

---

(١) سورة الجاثية : ٢٤ .

(٢) سورة يس : ٧٩ .

(٤) انظر كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٢٨٠ ج ١ نقلا عن د/ علـــى معبد : فى نشأة الفكر وتطوره ص ٣٢ طبعه أولى دار الكتاب الجامعى ١٩٨٤ م .

الإنسانية وكان يرى العلم الحقيق فى هذا ومن هنا جاء شعاره المعروف (اعرف نفسك بنفسك)(١) .

بل لقد كان العربى يعمل على دعم الفضائل ونصرة المظلوم وليس أدل على ذلك من حلف الفضول حيث اجتمع رجال من قريش فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته وقد حضر النبى على ما تذكر كتب السيرة هذا الحلف مع عمومته(٢) .

وكان لهم من الأعمال التى فيها الذكر والشرف والعز الشىء الكثير مثل السقاية ، والحجابة ودار الندوة — أشبه بمجلس الشعب لا يدخلها إلا من تجاوز الأربعين من عمره — واللواء والرفادة .

وكانوا يستخدمون وسائل الاعلام فى صورة مناد يدعو الناس إلى اجتماع عاجل او لوليمة يقيمها أحد الأسياد كابن جدعان مثلا(٣) .

وكانت مكة مركزا تجاريا كبيرا ومقاما دينيا خطيرا وبها ثروات كبيرة وكانوا يتخذون من الطائف مصيفا لكثرة حدائقها وجمال مياهها

---

(١) ص١٨٢ قصة الفلسفة اليونانية : أحمد أمين وآخر طبعة خامسة ١٩٦٤ لجنة التأليف والنشر .

(٢) راجع تاريخ ابن خلدون ص ١٦٨ ج ٢ طبعة ١٩٣٦ م .

(٣) انظر الأزرقى ص ٦١ ج ١ .

ووفرة سفوحها الخضراء[1] ،

أفبعد هذا كله تقول .

إن العرب كان الجهل يخيم عليهم وكانوا فى عزلة من العلم والعمران ؟
ولذلك يقول صاحبا تاريخ الفلسفة العربية .

جرت العادة على تسمية ما قبل الإسلام « بالجاهلية » دلالة على أن العرب كان يسيطر عليهم الجهل والبداوة ، وأنهم كانوا متخلفين عن عاصرهم من جيرانهم فى الحضارة والتمدن . وقد ساعد هذا الاعتقاد جهل المؤرخين الذى يكاد يكون مطبقاً لما كانت عليه الجزيرة العربية قبل الرسالة المحمدية وللحضارات التى نشأت فيها منذ أقدم العصور . الا أن الوثائق التى اكتشفت وتجمعت منذ أقل من نصف قرن من نقوش وكتابات وغيرها من المصادر — التاريخية العربية تشهد بعكس ذلك .

فالعرب قبل الإسلام كانوا يعرفون الكتابة . ويشهد ابن خلدون أنه لما ظهر الإسلام كان فى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب[2] وفى أحدى الكتابات التى عثر عليها حديثاً عبارة كهذه « إله السموات والارضين » وفى كتابه أخرى « إسم الرحمن » مما يدل على وجود فكرة التوحيد عند ملوك اليمن وزعمائها والكتابتان المشار إليهما يمنيتان[3] .

---

(١) راجع ص ١٩ وما بعدها : نظرات فى فلسفة العرب : حيدر عبد النور : منشورات دار المكشوف — بيروت طبعة أولى ١٩٤٥ م ،

(١) وانظر البلاذرى ص : ٤٧١ فتوح البلدان .

(٣) ص ١٢٨ — ١٢٩ تاريخ الفلسفة العربية ج ١ حنا الفاخورى — دكتور خليل الجر .

وفى القرآن الكريم ، وهو أصدق الوثائق التى يستند إليها المؤرخ وصفاً لحالة العرب قبل الإسلام وتفكيرهم وعقائدهم وهى كلها تدل على أن العرب فى تلك الفترة من تاريخ حياتهم علاقات قوية بالعالم الخارجى وعادات وتقاليد أصبحت بعيدة عن طور الحياة البدائية ، وتؤكد لنا التواريخ القديمة أن العرب قبل الإسلام كانوا على إتصال دائم بالهنود واليونان والرومان والمصريين ولا بد أن يكون هذا الاحتكاك من العوامل التى مكنتهم من التعرف إلى الحضارات القديمة الشرقية والغربية والتأثر بها .

ويقول « جرجى زيدان » فى تاريخ آداب اللغة العربية[1] :

(ويتبادر إلى الذهن أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب ، ولكن يظهر مما وصل إلينا أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ونباهة واختبار وحنكة وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم ، وهى تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الإنسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة) .

وإن قول « زهير بن أبى سلمى » فى معلقته (رأيت المنايا خبط عشواء) إلى قوله (وإن خالها تخفى عن الناس تعلم) ، لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة .

ويقول فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق .

---

(١) ص ٢٩ ج ١ .

« فى الشعر الجاهلى معان سامية وحكمة صادقة ، ومن يقرؤه خالى الذهن من كل ما قيل فيه يأخذه العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم أقصائهم النظر فى تأليف المعانى والتصرف فى فنون الكلام » .

هذا ويرى الدكتور طه حسين أن القرآن الكريم أصدق مرآة للحياة الجاهلية ، وهذه القضية — كما يقول الدكتور طه — غريبة حين نسمعها ولكنها بديهية حين نفكر فيها قليلا فيقول :

« ليس من اليسير : أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت آياته ألا أن تكون بينهم وبينه صلة ، هى هذه الصلة التى توجد بين الأثر الفنى البديع ، وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون . وليس من اليسير : أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبى فيه ألا أن يكون قد فهموه ووقفوا على أسراره ودقائقه .

وفى القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدونه من الوثنية وفيه رد على اليهود ، وفيه رد على النصارى .

وهو لا يرد على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم ومجوس الفرس وصابئة الجزيرة وحدهم ، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم فى البلاد العربية نفسها .

ولكن القرآن الكريم لا يمثل الحياة الدينية وحدها وإنما يمثل شيئاً آخر غيرها لا نجده فى هذا الشعر الجاهلى : يمثل حياة عقلية قوية ،

يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن فى جهادهما حظا عظيما .

أليس القرآن الكريم قد وصف أولئك الذين كانوا يجادلون بقوة الجدال والقدرة على الخصام والشدة فى المحاورة؟ وفيم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون ؟ . فى الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التى ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا لحلها ، فى البعث ، فى الخلق ، فى إمكان الاتصال بين الله والناس ، فى المعجزة وما إلى ذلك)[1] .

ثم يقول :

(أن القرآن يمثل لنا العرب فى عقلية قوية فقد جادلوا النبى ﷺ فى غير هوادة وهم أشداء فى خصومتهم له . يقول الله تعالى [لتنذر به قوما لدا] ويقول عز وجل على لسان المشركين « أآلهتنا خير أم هو . [ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون] ولا يعقل أن يكون هذا العنف فى الخصومة والجدال من غيرهم بالمسائل العقائدية التى أثارها القرآن ووقف منها موقفه المعروف الذى أراد به أن يردهم عما كانوا فيه من غى ، بل ولا يعقل أن نتحدث عن خصومة وجدال إلا إذا كان العرب قد فهموا تماما كل ما جاءهم به القرآن فى هذه اللغة الرقيقة الفذة التى كان يحدثهم بها ، والنتيجة لهذا أنهم لم يكونوا جهالا ولا أغبياء ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خشنة جافة ، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة ، والنتيجة لهذا أيضا أن الأمة العربية قبل الإسلام كانت متحضرة مستنيرة .

وهذا أمر طبيعى إذا ما علمنا الاتصالات التى كانت بين العرب وبين غيرهم من الأمم ، فقد اعتادوا أن يقوموا برحلتين :

---

(١) ص ٧٢ - ٧٣ فى الأدب الجاهلى ج١ طه حسين طبعة ثالثة لجنة التأليف والنشر وانظر ص ٤١ ، ٤٤ التفكير الفلسفى . عبد الحليم محمود .

إحداهما إلى الشام حيث الروم فى الصيف ، والأخرى إلى اليمن حيث الحبش أو الفرس يقومون بها فى الشتاء ، بل إن سيرة النبى ﷺ تحدثنا أن المهاجرين الأولين هاجروا إلى بلاد الحبشة بأمر الرسول نفسه[١] ومن المعروف أن الرسول لا يأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة إلا إذا كانت معروفة لهم ، وليس من المعقول أن تكون هذه الرحلات كانت تهدف إلى التجارة فقط ، بل لا بد أن تكون قد انتهت بالعرب أيضا إلى استيراد بعض الأفكار والعقائد والثقافة بوجه عام ، وبخاصة إذا علمنا بأن من بين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة سادة القوم ، أعظم رجال قريش ثروة وعقلا مثل أبو سفيان وابن نوفل وابن العاص[٢] وغيرهم .

ولقد كان العرب على اتصال بالمسيحية . فالتاريخ يذكر أن عثمان ابن الحويرث الذى يعد من الحنفاء والذى اعتنق المسيحية والذى كان يعد من أعقل رجالات مكة والذى كان يحـــلم أن يكون ملكا عليها أو صاحب كلمة نافذة ـ كانت له اتصالات بقيصر وكان المسيحيون يعتبرونه صديقا لهم بل لقد اتصل بعمالهم فى الشام وأظهر لهم المنافع الكثيرة التى يمكن أن تجنيها الدولة البيزنطية إذا قـــدر لها أن تحتل الحجاز .

ولا شك فى أن هذه الرحلات والاتصالات كان لها أعمق الأثر فى تثقيف العقلية العربية بوجه عام .

يقول الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق[٣] فى تمهيده .

ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدى فانهم لم يكونوا

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ص ٢٩١ - ٢٩٢ ج ١ .

(٢) ص ١٥ د / يحيى هويدى : محاضرات فى الفلسفة الاسلامية : بتصرف

(٣) ص ١٠١ .

فى سذاجة الجماعات الانسانية الأولى من الناحية الفكرية التى "همنا يدل على ذلك ما عرف من أديانهم وما روى عن أثارهم الأدبية .

وبعد ، فإننا نعلم حق العلم أن الأكثرية العظمى فى جزيرة العرب كانت من البدو الرحل الذين شغلهم البحث وراء لقمة العيش عن التفكير فى الدين وفيما وراء الطبيعة ، وليس من الطبيعى أن نتطلب من شخص يقاسى فى عنف شظف الحياة أن يفكر تفكيرا مجردا .

إن الأغلبية العظمى من جزيرة العرب صحراء قاحلة ، وليس لساكنيها استقرار ، ما ، وليس بها أمن مستتب وليس بها أرض زراعية تدعو إلى الاستقرار ، والحروب والغارات فى جبالها ووهادها لا تكاد تنقطع ، فمن الطبيعى — والأمر كذلك — أن لا يكون عند هؤلاء أوقات فراغ يقضونها فى التفكير فيما وراء الطبيعة .

ولكن — على حد تعبير الدكتور / عبد الحليم محمود[1] :

إذا كنا لا نتخذ من عقلية الفلاح الحافى القدمين الذى قوس انحناؤه على الفأس ظهره ، مثالا لحضارة المصريين وثقافتهم ، سواء كان ذلك فى العصر القديم أو فى العصر الحديث .

وإذا كنا لا نتخذ من الفرنسى الريفى الجاهل مثالا لحضارة فرنسا وثقافتها فإنه من غير الطبيعى أن يكون البدو الرحل مقياسنا للثقافة العربية فيما قبل الاسلام .

وإنما يكون المقياس عند هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الاستقرار

---

(١) ص : ٥٤ التفكير الفلسفى فى الاسلام .

وحظا من الفهم وقسطا من النظر الثاقب والفكر السليم ، وقدرا من الحنكة والتجربة والفراسة وهذا ما نجده عند شعراء العرب وحكمائهم فى نثرهم وشعرهم ، وما نلمسه من آرائهم وأفكارهم التى تدل كما يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق - على أن العرب عند ظهور الاسلام كانوا يأخذون بأنواع من النظر العقلى يشبه أن يكون من الأبحاث الفلسفية العلمية لاتصالها بما وراء الطبيعة من الألوهية وقدم العالم وحدوثه والأرواح والملائكة والجن والبعث وغير ذلك[1] .

---

(١) ص ١٠٥ تمهيد .

القرآن وإعاقة النظر العقلي

وأما عن دعوى المستشرقين بأن القرآن الكريم يقف حجر عثرة أمام النظر العقلي كما يقول بذلك « تيمان » ومن يسير في دائرته فإننا نقرر بكل ثقـــة واطمئنان رفض هـذه الدعوى الجائرة رفضاً قاطعاً .

عندما نقول :

ان القرآن كتاب لا يحث على النظر العقلي ولا يدع المسلم مجالا يستقي منه ظلال الحقيقة بعقله ووجدانه ، ذلكم أن القرآن الكريم بين أيدينا نتصفحه متى نشاء ، ونقف منه على سمات بينة تدعو المسلم إلى وجوب إمعان النظر في الكون ، امعانا عقلياً يبلغ من سلطانه حداً يندهش له الوجدان : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » فمن هو الحكم يا ترى ـ في نظر القرآن ـ بين الغواية والرشاد وبين الضلال والهدى وبين الخير والشر ؟ نحسب أنه (العقل) وليس سواه ، يجتهد فيصيب ، ويجتهد فيضل وبين خطئه هذا وصوابه ذاك يكمن الأجر كما يقول الفقهاء .

وإنه ليلفت النظر ما نجده من الانفتاح الذهني الذي دعا إليه القرآن في أخذ العبرة مما هو محسوس قائم ، ومما هو موجود جزئي والارتفاع منه طوراً فطوراً إلى عالم أسمى ، عالم أكثر اتساقا وأكثر نظاما وأدق توافقاً ، بحيث تنطلق نظرته من الاستقراء إلى الاستنباط في مسيرة ذهنية هادفة لا عوج فيها ، ترتفع إلى التعميم الشامل الذي يرد الأشياء إلى قمة واحدة كما تفعل الفلسفة سواء بسواء .

بل إن ما جاء فى القرآن الكريم عن مبدع الكون جل جلاله تتحدد معالم لم تتطرق إليها الفلسفات المتقدمة عليه لحقيقة الموجود الأول قد وضعتها الأفلاطونية بشكل ، وصورتها المشائية بشكل ، وعبرت عنها الوثنيات والإسرائيليات بشكل آخر ، نجد القرآن يقدمها فى صورة ينفرد بها دون سائر تلك الآراء ، فيصف الموجود الأول بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد هذا القرب الذى ينطلق من موطن الحيوية فى الإنسان ، دون أن يضع لهذا التشبيه مجالا للحلول أو الاتحاد ، بل هو إتصال فحسب تنتفى معه جدليات أصحاب نظرية الإشراق فى صعودهم وهبوطهم الخياليين[1] إن القرآن هو أول كتاب سماوى فرض تعلم الفلسفة على أتباعه فرضاً وأوجب عليهم التفكير فى أسرار الكون وخفايا الوجود ووصف المتأملين فى هذا بأنهم أولو الألباب وقد هدف القرآن من دعوة العقل إلى هذا التأمل أن يصل إلى معرفة المبدع الأول ووحدانيته وكماله وإلى الإيمان به عن طريق العقل إلا عن طريق التقليد[2] .

فقد اختلف مفكروا الإسلام فى صحة إيمان المقلد ، رغم أنه قد قلد باحثاً بحث عن الحق واهتدى إليه .

إن الفرق بين المقلد والباحث لا يرجع إلى متعلق الإيمان ، فكلاهما قد آمن بما آمن به الآخر ، ولكنه يرجع إلى كيفية الإيمان ، فالباحث

---

(١) انظر ص ٢٨ - ٢٩ د/ جعفر آل ياسين : المدخل إلى الفكر الفلسفى عند العرب .

(٢) ص ٨ د / محمد غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين .

قد سار وراء عقله ، والمقلد سار وراء غيره ، أعنى أن أحدهما قد استعمل فكره والآخر لم يستعمله ، أحدهما قد آمن بما تأدى إليه عقله والآخر آمن بما آمن به غيره ، فالباحث مقبول إتفاقاً والمقلد بين اليأس والرجاء(١) :

أما كثر من هذا يرجى إحترام للعقل ؟ وتقدير له ؟ ورفع من شأنه ؟ ومن الذى أعطى العقل هذه المكانة ؟ إنه القرآن الكريم الذى أطلق له الحرية الكاملة وفك عنه قيود التبعية والتقليد .

ذلك لأن العقل فى نظر القرآن الكريم - هو أهم الطاقات الإنسانية كلها ، لجميع أركان الإسلام مبنية على فهم العقل وقناعته .

لقد خاطب القرآن العقل ليدل على وجود الله جل جلاله ، وحض الإنسان على التدبر فى الوجود — عن طريق العقل - كى يشاهد مظاهر قدرة الله فى هذا الترتيب البديع والنظام الدقيق والابداع المحكم والتنظيم العجيب والدقة المتناهية ، وحثه على النظر فى نفسه وافت العقل إلى قياس البعث فى الآخرة على الخلق الاول والنشأة الأولى ليبرهن بالاستنتاج العقلى على صحة عقيدة البعث والجزاء والجزم بها ، وأمره أن يتفكر فى خلق السموات والأرض وينظر آثار الأقوام السالفة وأمره أن يتدبر فى آيات القرآن كى يعقل معانيها ويفهم مراميها ، وأنكر على الذين لا يستعملون عقولهم فى الفهم والتفكير السليم ووصفهم بالصم والبكم والعمى (واقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون

(١) ص ٢٢٦ د / سليمان دنيا : التفكير الفلسفى الإسلامى .

بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)(١) (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون)(٢) إنهم لم يفكروا فيما نقلته إليهم حواسهم من المرئيات وآذانهم من المسموعات وأبوا أن ينطقوا بالحق الذى يمليه عليهم عقلهم لو سمحوا له بالتفكير والتدبر . فهم عمى عن إبصار الحق أو ما يؤدى إليه من آيات الله فى الآفاق ، صم عن سماع الحجج والبراهين والتفكير فى مصيرهم .

ان القرآن يدعو العقل إلى ممارسة حقه فى البرهان والاقتناع والتأمل والملاحظة واستخدام الحجج المنطقية وإلى دراسة القوى الكونية كى يقف على سننها والقوانين التى أودعها الله فيها والقرآن بعد ذلك كله يكره الجمود على تقليد الآباء والأجداد إذا كان هذا التقليد يناقض أحكام العقل القاطعة ، ويهزأ بهؤلاء الجامدين ويسخر من الخرافات والأساطير ويندد بالمقلدين الذين لا يفكرون إلا بعقول غيرهم ويجمدون على القديم المألوف (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) (٣) .

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا : حسبنا

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .
(٢) الأنفال ٢٢ .
(٣) البقرة : ١٧٠ .

ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون)(١) .

ويأمر القرآن العقل على ألا يقبل شيئا أو يقر بشيء أو يحكم على شيء إلا بدليل واضح وحجة قوية وعلم مبين يقول القرآن الكريم (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله)(٢) .

ويقول (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)(٣) ويقول (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (٤) .

ويوضح القرآن للعقل كيف يصل إلى الحكم السليم وفي هذا المجال يعرض بكل أمانة ودقة آراء المخالفين ثم يتبعها بالرد الحاسم القائم على المنطق الدقيق ، وقوانين الفطرة السليمة ، فقد ذكر آراء الوثنية والدهرية والكفار والمنافقين ، وعقب عليها تعقيبا مقنعا مستخدما في ذلك أنصع البراهين وأقوى الأدلة استمع إليه يعرض آراء الدهرية مثلا حين يقولون :

[إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر] ثم يعقب على ذلك بهذا النقد الموضوعي الذي يوحي بوجوب توخي اليقين عند الحكم على الأشياء فيقول [ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون] .

فهو هنا يفرق بين العلم والظن ، موجها نظرنا إلى ضرورة لحص الأحكام

---

(١) سورة المائدة : ١٠٤ .
(٢) سورة الحج : ٨٠٧ .
(٣) سورة البقرة : ١١١ .
(٤) سورة النمل : ٦٤ .

للاستيثاق من مصدرها ، فليس ما مصدره العلم واليقين مماثلا لما مصدره الظن والتخمين ، وهذه فكرة تنمى روح النقد وتشحذ الذهن وتكسبه عادة الحرص والاحتراس من قبول الأفكار دون تمحيص(١) .

ويحكى القرآن الكريم عن بعض المعذبين فى جهنم عبارات الندم والتحسر على ما فاتهم فى الدنيا من ثمرات الفكر والسلوك ، ومن هؤلاء من يقول (. . . لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير)(٢) .

ونرى أن هذين اللفظين « نسمع » و « نعقل » يشيران إلى وسيلتين هامتين من وسائل المعرفة ، إحداهما وسيلة النقل والرواية والنطق عن طريق التلقين والتعليم ، والأخرى الوسيلة العقلية التى تستعمل العقل فى سبيل الوصول إلى الحقيقة أو المعرفة . فإذا أضفنا إلى ذلك قوله تعالى (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) كنا بحق أمام وسائل أخرى للمعرفة . لاسيما إذا راعينا صدر هذه الآية وهو (ولا تقف ما ليس لك به علم) ، إذا أن ذلك معناه بصريح العبارة : ألا يتبع الإنسان ألا ما أثبته العلم وتأكدت حقيقته بالمعرفة . وهذا ولا ريب حث على التفكير والاجتهاد للوصول إلى حقائق وليس إلى ظنون وتخمينات(٣) .

(١) ص ٢٥ د / كمال جعفر : فى الفلسفة الاسلامية و ص ١١٣ — ١١٤ فى الفلسفة الاسلامية د / عوض الله حجازى طبعة ثالثة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

(٢) سورة الملك / ١٠ .

(٣) ص ٢٧ : فى الفلسفة الاسلامية : د / كمال جعفر .

وإذا أردنا أن نضع النقط على الحروف كما يقولون أو أردنا شيئاً من التفصيل فإننا نستطيع أن نبرز عدة مجالات رئيسية يحث القرآن العقل للعمل فيها وهى :

أولا : تدبر آيات الله فى الكون للتعرف على قدرة الله المعجزة وتفرده جل جلاله بالخلق والتدبير والهيمنة والسلطان فالقرآن الكريم يخاطب العقل ويستنهضه للتفكير والتدبر والتأمل للوصول إلى الحقيقة الناصعة ، حقيقة الألوهية وما يترتب على معرفتها من التزامات فى كل مجالات الشعور والفكر والسلوك .

يخاطب القرآن العقل ليتدبر فى آيات الله فى الخلق : خلق الكون وخلق الإنسان وخلق الحياة « هل من خالق غير الله »(١) ؟ (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون)(٢) .

خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين) (٣) (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج

---

(١) سورة فاطر

(٢) الطور : ٣٥ : ٣٦ .

(٣) لقمان : ١٠ : ١٠٠ .

بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج)(١) (أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)(٢) .

ان القرآن الكريم يخاطب العقل ليتجرد فى تفكيره وليصل إلى النتيجة الموضوعية العلمية التى يدل عليها كل ما فى السموات والأرض ويتخلى عن الهوى الذى يعمى وعن الكبر الذى يضل . كى يجد الحقيقة بارزة تملأ اليقين (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)(٣) (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)(٤) (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)(٥) .

ولا شك أن فى هذا رد على أصحاب الديانات المنحرفة الباطلة مثل الثنوية من المجوس والزرادشتية والمانوية ومن يقول بوجود إلهين أحدهما للخير والآخر للشر .

ثانياً : يوجه القرآن الكريم العقل إلى تدبر آيات الله فى الكون

---

(١) سورة ق : ٧ : ١١ .
(٢) سورة الغاشية : ١٧ : ٢٠ .
(٣) سورة النحل : ١٧ .
(٤) سورة الأنبياء . ٢٢ .
(٥) سورة المؤمنون : ٩١ .

للتعرف على أسراره ومعرفة القوانين التى تسيره والنواميس التى أودعها الله فيه (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)[1] (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار)[2] .

فدورة الشمس والقمر فى فلك لا يحيدان عنه وفى مواقيتهم لا تتخلف ، كل ذلك يجرى حسب سنن كونية سنها الله ومقادير قدرها الله ونواميس نظمها الله جل جلاله ، وهذا ما يدفع العقل كى يبحث عن غاية كل ظاهرة من ظواهر الكون كى يدرك الهدف من وجودها ، وهذا ما يربى العقل على مبدأ علمى عملى كان آخر ما اهتدى إليه الفكر الغربى وهو مبدأ التقنية واستخدام القوانين العلمية وقوى الكون لرفاهية الإنسان .

ذلك أن كل آية من هذه الآيات التى نزلت منذ ما يقرب من خمسة عشر قرنا تقول للعقل . استخدام حرارة الشمس وضوء القمر والرياح والنجوم ، والأنهار والجبال وكل شىء سخره الله لك وجعل مفتاحه بيدك .

إن تكرار حوادث الكون حسب النواميس التى أودعها الله فيه

---

(١) سورة يس : ٣٢ .

(٢) سورة إبراهيم ٣٢ — ٣٣ .

هى التى علمت الإنسان المبدأ الذى يثبت عليه اليوم جميع القوانين العلمية وهو أساس التفكير العلمى الذى به اكتشف الإنسان واخترع كل مظاهر الحضارة .

إن سنن هذا الكون وجميع حوادثه وظواهره وكائناته من أصغر ذرة إلى أكبر جرم قد خلقها الله وسيرها وفق نظام لا يتغير وبقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى شيء حدوده ، فيختل توازنه ويخل بنظام غيره مما جاوره أو قابله أو تأثر به أو أثر فيه ومن هذه المبادىء التى استوحاها العقل المسلم من القرآن الكريم بتوجيه القرآن وارتقى بها فى العلوم الطبيعية ، استقت أوربا مبادىء التفكير العلمى ووحدة قوانين العلم الحديث ومناهج التفكير العلمى المنطقى .

وهذا المبدأ من مبادىء المنطق العلمى وهو (إقامة الملاحظة العلمية على أساس القياس الكمى لا على أساس الوصف الكيفى) وهو المبدأ الذى يربى العقل على الدقة ليأخذ كل شيء بمقياس .

ثالثاً : يوجه القرآن الكريم العقل إلى دراسة التاريخ وسير الأمم كى يأخذ منها العبرة والموعظة لينتفع بها فى حياته وينهض بها مجتمعه (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)[1] .

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٧ .

وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[1] .

(أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)[2] .

وهكذا يوجه القرآن الكريم العقل البشرى ليتدبر التاريخ ، فالتاريخ هو المجال الواسع الذى تتحقق فيه سنن الله بأكملها ، سواء منها ما يتحقق فى عمر الفرد أو - وهو الأغلب - ما يتحقق فى عمر الأفراد والأجيال .

إن تدبر التاريخ إذن هو فى الواقع تدبر السنن الربانية فى واقعها التاريخى الذى يمتد خلال القرون ، ورؤية الطريقة الواقعية التى تتحقق بها تلك السنن فى حياة الأفراد والأمم لتظهر العبرة الكاملة فى نفوس الناس ، فيسايروا هذه السنن ولا يصادموها[3] .

هذا وينبغى أن ننظر بعين الاعتبار إلى كثرة ما جاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى : [قل سيروا فى الأرض فانظروا] حتى استنبط العلماء قانوناً أسموه « قانون السير والنظر » يتجه العقل - على مقتضاه - للبحث عن الأديان والرسالات للانتفاع بتجارب الأمم السابقة والاعتبار بجزاءاتها الإلهية نتيجة ما كان منها من خير أو شر أو ما فعلته من حسنات أو قدمته من سيئات .

ويتجه الإنسان للسير والمشى فى جنبات الأرض ومشاهدة ما فيها وما عليها من جبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود وذلك

---

(١) سورة الروم : ٩ .

(٢) سورة الحج : ٤٦ .

(٣) انظر ص ٢٧٥ محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة طبعة أولى سنة ١٩٨٣م دار الشروق .

لاستكشاف ما على سطحها من آثار علمية أو الكشف عما فى باطنها من معادن ومن حفريات ذات دلالة تاريخية ، وذلك بدراسة علمية دقيقة وفحصها بعقل واع وسمع مرهف وبصر حديد لقراءة الآثار والحفريات ثم تنسيق ما يكتشف من معلومات ومحاولة ربطها بحلقتها فى سلسلة التاريخ الدينى العام[1] .

إن القرآن الكريم يأمرنا بتطبيق هذا القانون فى كل ما حولنا من حولنا يقول الحق جل جلاله (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير) .

يقول صاحب كتاب الفلسفة الحديثة فى الميزان[2] عن هذا القانون: ومن عجيب أمر هذا القانون أنه يهدى الإنسان إلى معرفة القوانين والسنن والمناهج السابقة ويأخذ بيد العلم إلى البحث والدرس والتقصى لأحوال السابقين .

ولم يأمر القرآن الكريم العقل بتطبيق هذا القانون إلا بعد أن أخبره بأن الله جل جلاله قد سخر له هذا الكون وهيأ له هذه الأرض وجعلها ذلولا (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)[3] [وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون](٤) .

---

(١) د / قنديل محمد قنديل ص ٦٣ الاقتصاد فى الاعتقاد (شرح وتعليق) .
(٢) د . محمد بدران ص ١٨٧ .
(٣) سورة الملك / ١٥ .
(٤) سورة الجاثية / ١٢ .

فالكون كله بدقائقه وعظائمه . بأرضه وسمائه . بجماده ونباته وحيواناته مسخر للإنسان ، ومن هنا جاء توجيه القرآن للعقل أن ينظر ويفكر ويتدبر بحسه وسمعه وفكره كي يستطيع كشف قوانينه ومعرفة العلاقات بين ظواهره وبهذا يقف على النظام الإلهي في الكون ، ومن ثمة يصل إلى معرفة منظم هذا الكون وخالقه جل جلاله وإدراك قدرته التي لا قيود عليها ولا حدود لها ، بل ويعلم مدى رحمة الله بهذا الإنسان الذي جعله — بما منحه من عقل وفكر — سيد هذا الكون كله ، فيعبد هذا الخالق جل جلاله وهو ينتفع بتطبيق هذه القوانين التي جناها من تطبيقه لقانون السير والنظر كما أمر القرآن الكريم ، ويحمد الخالق جل جلاله ويشكره على نعمه الكثيرة التي أنعم بها على هذا الإنسان فيفكر في أمر هذا الطعام الذي يحفظ عليه حياته وأمر هذا الماء الذي جعله الله قيام وجوده — كما أمر الله (فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم(١)

بل إن القرآن الكريم يوجه العقل — كي يزداد إيماناً — للنظر في إبداع السموات وسير الكواكب في أفلاكها ودورانها حول محاورها دون أن تتلاقى أو تتصادم أو تنحرف ، أو تتوقف عن العمل والسير والدوران أو يصيبها الاعطاب(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً

---

(١) سورة عبس : ٢٤ - ٣٢ .

وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)(١).

وعندما يتجه العقل إلى هذا الترتيب المذهل فإنه يصل إلى إدراك مدبر هذا النظام ولذلك فإن التاريخ البشري يخبرنا بأن أول طريق متظم سلكه الفلاسفة هو هذا الطريق الذي نجده في القرآن الكريم فعندما فكر « انكساغوراس »(٢) في الكون تفكيراً طويلا وتأمل في ملكوت السموات تأملا دقيقاً فإنه قد انتهى به تأمله إلى ما يلي.

لو نظر الإنسان إلى سير الكواكب في أفلاكها، ورأى إلى أي حد هي تامة الأحكام دقيقة التنظيم، بحيث لا يدخل كوكب في فلك ولا يغادره قبل موعده المحدد له، أو بعده بدقيقة واحدة بل بثانية، ولو فعل لاصطدمت الكواكب وهوى العالم كله في مكان سحيق. وإذن فهذا التدبير الذي انتهى إلى حد الكمال هو أقطع دليل وأنصع برهان على وجود العقل العام المدبر.

ولذلك فإن سقراط قد أطلق على « انكساغوراس » من أجل استكشافه هذا الطريق إسم : « الصاحي بين السكارى »(٣).

ولم يكن أمام أصحاب العقول — بعد هذا كله — إلا أن ينظروا في هذا الوجود الذي يتقلبون بين أرجائه، ليعلموا أنه صنعة لا بد له من

---

(١) سورة آل عمران ١٩٠ - ١٩١

(٢) فيلسوف اغريقي توفى عام ٤٢٨ ق م.

(٣) انظر ص ١٢٩ د / محمد غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين .

صانع ، فيدينوا لهذا الصانع بالشكر والطاعة وبهذه المعرفة يقبلون على ربهم عارفين بجلاله طامعين في رضوانه ، وكلما كانت المعرفة بالصنعة أكمل وأتم ، كانت المعرفة بالصانع كذلك وكانت منزلة العارفين عند ربهم كذلك ، وبهذه المعرفة أيضا يتأتى إستغلال الكون لصالح البشرية ويتحقق معنى استخلاف الله للإنسان في الأرض [خلق لكم ما في الأرض جميعا] وعلى هذا الفهم لطبيعة وجودهم وطبيعة حياتهم وطبيعة كل ما في الكون تكون علاقاتهم ومعارفهم.

لقد أوقد القرآن الكريم - كما رأينا - في نفوس المسلمين شعلة التفكير والعلم والنظر بما فرض عليهم من نظر في الوجود وفي أنفسهم ليعرفوا مبدأهم ومصيرهم ويكيفوا سلوكهم في الحياة على أساس هذه المعرفة[1] [وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون][2].

بل إن علماء الإسلام - من كثرة ما دعا القرآن إلى التدبر - قرروا أن أول واجب على الإنسان الذي يبلغ درجة النضج العقلي أن ينظر في الكون بعقله من جهة احتياجه لموجد يوجده أو عدم احتياجه ليؤمن بما يوصله إليه نظره ، بل قرر بعضهم أن أول واجب على الإنسان الذي يبلغ درجة النضج العقلي ، هو الشك ، من حيث إن الشك يقتضي تخلية الذهن تماما من كل رأي سابق ، وتخليته من العصبية لأي رأي سابق حتى لا يخضع في قبول رأي أو رده إلا لحريته المقيدة بسلطة عقله فقط يقول حضد الدين الايجي .

---

(١) ص ٣٠٦ - ٣٠٧ د/ سليمان دنيا التفكير الفلسفي الإسلامي مكتبة الخانجي طبعة أولى عام ١٩٦٧ م .

(٢) سورة الذاريات : ٢٠ - ٢١ .

قد اختلف فى أول واجب على المكلف أنه ماذا؟ فالأكثرون ومنهم الشيخ أبو الحسن الأشعرى، على أنه معرفة الله تعالى، إذ هو أصل المعارف والعقائد الدينية، وعليه يتفرع وجوب كل واجب من الواجبات الشرعيــــة.

وقيل هو النظر فيها أى معرفة الله سبحانه لأنه واجب اتفاقا.

كما مر وهو قبلها وهذا مذهب جمهور المعتزلة والأستاذ أبى إسحق الاسفرائينى.

وقيل هو أول جزء من النظر، لأن وجوب الكل يستلزم وجوب أجزائه، فأول جزء من النظر واجب وهو متقدم على النظر المتقدم على المعرفة.

وقال القاضى: (واختاره ابن فورك وإمام الحرمين، أنه القصد إلى النظر، لأن النظر فعل اختيارى مسبوق بالقصد المتقدم على أول أجزائه وقال أبو هاشم أول الواجبات الشك)[١].

رابعاً: وجه القرآن الكريم العقل إلى شمول علم الله تعالى لكل شيء وبكل شيء، وبذلك يكون قد عارض الفكرة القائلة بأن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات وهى الفكرة التى ترجع فى أصولها إلى المشائى الأول «أرسطو» الذى نفى الإرادة والتدبير والعلم الجزئى من الله تعالى، إذ كان يرى أن الله عقل وعاقل ومعقول: لأن موضوع العلم الكامل — فى رأيه — لا يكون إلا كاملا وهو لهذا لا يعقل إلا ذاته، فيكون عقله بذاته ومن ذاته ولذاته.

---

(١) المواقف وشرحه ص ٦٣.

إذا لا يتفق مع المنطق أن يكون موضوع العلم الالهى الأشرف هو عالمنا هذا لأنه ناقص بدليل سيره نحو الكمال ، فيجب تنزيه الإله عن إدراك الناقص ، أما الإدراك الإلهى الكامل فلا يتعلق إلا بأفخم ما فى الوجود ولا يوجد شىء أفخم من نفس الذات الإلهية ، فعلم الله إذن لا يتعلق إلا بذاته وفى هذا يقول أرسطو :

« لا يناسب مقام المبدأ الأول أن يدخل عقله ما هو أدنى مرتبة منه فى الوجود ، كيف يعلم ما هو منزه عن كدر المادة ما فى العالم من الأكدار والأدناس والنواقص والجزئيات الجنسية من غير أن ينقص من صفاته شىء .

أما ما فى الكون من نظام فعلته — على رأى أرسطو — ذلك الشوق الطبيعى الموجود فى كل كبير وصغير من أجزاء المادة ، يحركه نحو الصورة الغائية وأن هذه الحركات المدفوعة بالعشق ليس للإرادة ولا للعلم فيها أى تدبير ، بل هى حركات آلية منشؤها الاستعداد الطبيعى الموجود فى أجزاء المادة »[1] .

اقد نبه القرآن الكريم إلى أن الله تعالى لم يصنع ما صنع ثم يتركه بلاعناية أو رعاية أو دون علم تام بما يكون منه ، بل أنه — جل جلاله — قد أحاط بكل شىء عناية يقول تعالى (الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)[2] .

---

(١) انظر ص ٧٧ — ٧٨ : الفلسفة الإغريقية طبعة ثانية د / محمد غلاب وانظر ص ٦٨ من الفلسفة فى الإسلام د / عرفان عبد الحميد .

(٢) سورة الأعراف : ٥٣ .

ويقول سبحانه (يدبر الأمر يفصل الآيات)(١) (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) ويقول تبارك وتعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما يسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)(٢) .

إن القرآن الكريم يوضح في دقة متناهية مقام الخالق جل جلاله وعلاقته بخلقه ، فالله سبحانه وتعالى ليس « المحرك الأول » كما زعم أرسطو طاليس ، وليس مجرد « صانع » صنع ما صنع ثم تركه بلا عناية أو رعاية منه ، دون علم تام بما يكون منه ، بل إنه قد أحاط بكل شيء علما، هو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويعلم ما تكسب كل نفس ويعلم كل ما كان وما يكون وما سيكون جملة وتفصيلا ، إنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء [وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون](٣) .

[وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين](٤) [وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق ، هو اللطيف الخبير](٥) .

---

(١) سورة الرعد : ٢ .

(٢) سورة الأنعام : ٥٩ .

(٣) سورة الأنعام : ٣ .

(٤) سورة هود : ٥ ، ٦ .

(٥) انظر ص ٢١ – ٢٢ القرآن والفلسفة . د / محمد يوسف موسى طبعة رابعة دار المعارف .

وانطلاقا من هـــذا العمل التكامل الشامل بكل ما يكون من الانسان من قول أو عمل ، وبما تحدثه به نفسه فيبقى سرا لا يجهر به ولا يعلمه غيره من الناس — يأتى يوم يحاسب فيه الانسان على ما قدمت يداه ، بعد أن يبعث الناس جميعاً فى يوم محدد لا ريب فيه ، وحينئذ يحاسبون على ما كان منهم ووقع بإرادتهم وثبت عنهم فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها وهذا وحده كاف ليحدد أعمال الناس — فى أكثر الأحايين — فى إتجاه الخير ودائرة الحق ومحيط الاحسان فيسعد الفرد ويأمن المجتمع وتتقدم الأمم.

خامساً : آثار القرآن الكريم أمام العقل الإنسانى مسائل فلسفية(١) وعلمية وأخلاقية كثيرة ومتنوعه ، ودفع العقل المسلم إلى أن — يتخذ إزاءها مواقف معينة تنطلق وتنسجم مع نظرته الكلية العامة للوجود .

من ذلك الإشارة إلى أصل الحياة والوجـــود والنشأتين الأولى والآخرة واتخاذ النشأة الأولى — أى اختراع الحياة وإبداعها فى المادة الجامدة(٢) دليلا لإثبات النشأة الآخرة أو المعاد

---

(١) ص ٥٦ - ٥٧ د/ عرفان عبد الحميد الفلسفة الاسلامية .

(٢) صاغ الفلاسفة والمتكلمون هذا الدليل القرآنى فى صورة برهان عقلى أسموه « بدليل الاختراع » وفى ذلك يقول ابن رشد (الطريقة التى نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها « إلى الاقرار بوجود الله » إذا استقرأت الكتاب العزيز وجدت تنحصر فى جنسين : أحدهما طريق الوقوف على العناية بالانسان وخلق جميع الموجودات من أجله ولنسم هذه دليل العناية ، والطريقة الثانية ما ظهرت من اختراع جواهر الأشياء والموجودات مثل اختراع — الحياة فى الجماد والادراكات الحسية والعقل ولنسم هذه دليل الاختراع — انظر ص ٢٤٠ من مناهج الادلة ابن رشد .

والملاحظ على جملة الآيات التى تتضمن الاشارة إلى الخلق الأول أنها تلتزم طريقة التقرير البديهى التى لا يرى العقل بدا من التسليم بصحتها وصدقها ومن ذلك قوله تعالى :

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »[١] وقوله جل جلاله (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا)(٢) وقوله سبحانه (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون)(٣) .

وكقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)(٤) .

ثم يسوق القرآن الكريم هذه القدرة الخالقة المبدعة المخترعة لسر الوجود والحياة دليلا على صدق النشأة الآخرة (أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم

---

(١) سورة الروم : ٢٠ .
(٢) سورة الفرقان : ٥٤ .
(٣) سورة غافر : ٦٧ :
(٤) سورة المؤمنون : ١٢ - ١٤ .

الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون)(١) الآيات.

ولا يقتصر القرآن الكريم على ذلك بل يذكر العقل فى غير ما موضع وفى أكثر من سورة ذلك الدليل الذى يقول فيه (كانت) أنه يذكر مع الاحترام أعنى دليل العناية الذى يطلق عليه أحياناً دليل العناية وأحيانا أخرى دليل النظام أو القصد والتدبير أو الغائية وهذا الدليل هو الذى يستند إلى ما نراه فى العالم من تناسق وتضامن وانسجام ، ومن تدبير محكم وعناية تامة بكل صغيرة وكبيرة وترابط لا انفصام له بين أجزاء العالم وأجزاء وحداته أيضاً .

وقد استخدم القدماء هذا الدليل ولا يزال المحدثون يستخدمونه ويعتبره بعضهم أوضح الأدلة على وجود الله ، بل وأقواها وهو فى الوقت نفسه أسهلها بالنسبة للادراك الإنسانى قال تعالى (الله الذى سخر لكم البحر) (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) (والله جعل لكم الأرض بساطا) (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)(٢) .

أبعد أن دعا القرآن الكريم العقل الإنسانى إلى هذا كله ، وعلم العقل الإنسانى هذا كله ، ودفع العقل الإنسانى إلى هذا كله ؟ يأتى تنمان ومن يسير خلفه ليقول :

ان القرآن يعوق الفكر العقلى الحر ؟

---

(١) يس : ٧٧ - ٨٠ .
(٢) البقرة : ١٦٤ .

ان مثل تيمان ومن معه كمثل من يقول — على حد تعبير الدكتور سليمان دنيا[1] : إن الشمس تفيض برودة وظلمة .

ألا فليقرأ تيمان القرآن الكريم وليمسك بيده قلما وقرطاسا ثم ليحص عدد مرات ذكر « العقل » في القرآن الكريم مصحوباً تارات بأشياء والتقدير ومأموراً تارات أخرى بالبحث والنظر والتفكير ، ثم ليقل لنا ماذا يستفاد من ذكر العقل مصحوباً بالشكر ومأموراً بالبحث والنظر والتفكير مرات ومرات ؟

يستفاد منه أن القرآن يفوق النظر العقلي الحر ؟ أم يستفاد منه شيء آخر .

ان الجواب على ذلك رهن بمقدار ذكاء « تيمان » وصحبه ، ولكي نوفر الجهد على « تيمان » فإننا نقول له :

إننا لو ذهبنا نحصي الآيات التي وردت فيها كلمات (تعقلون - يعقلون) لوجدنا « ٤٨ » آية موضعاً في القرآن و (١٧) موضعاً لكلمة (يتفكرون) و (١٦) موضعا وردت فيه كلمة (يفقهون) ولقد تعمدنا كتابتها أرقاماً حتى تنطبع — من أول وهلة في ذهن هؤلاء الذين يسيرون وراء تيمان وأمثاله ، وكل هذه الآيات جاءت إما للحض على التفكير وإما لمخاطبة العقلاء دون سواهم من الذين لا يريدون أن يعقلوا أو يتفكروا وورود الحض على تدبر القرآن في أربعة مواضع من القرآن وورد تخصيص

---

(1) ص ٣٣٩ التفكير الفلسفي الإسلامي طبعة أولى سنة ١٩٦٧ م مطبعة الخانجي بمصر .

أولى الألباب بالموعظة والحض على التقوى والاعتبار بقصص القرآن وبدلائل قدرة الله في الكون وفي الأنفس وبالتفكير وبالهداية (١٦) مرة وقد آثرنا أن نتحدث بالأعداد لا بالحروف والكلمات كي يلتقطها الذهن مباشرة وحتى يعترف من يقف عليها بمدى إهتمام القرآن بالعقل وحرية التفكير والبحث والنظر ويعلم أن هناك كثيراً من الأمور الدينية تتوقف على العقل يقول الإمام محمد عبده (وتقرر بين المسلمين كافة — الا من لاثقة بعقله ولا بدينه — ان من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحى به إليهم وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها)[1].

وإذا كان «تمان» ومن معه لا يقتنع — تعصباً — بكلام الإمام محمد عبده فإننا نقدم إليه أقوال المنصفين من الغربيين وغيرهم من أبناء جلدته يقول «التكس لوازون»:

خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الأخلاق وهو كتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرآن وقوانين الطبيعة.

ويقول الكاتب الفرنسي المشهور «مكسيم رودنسون»: القرآن كتاب مقدس تحتل فيه العقلانية مكانا جد كبير، فهو في مناسبات عديدة يكرر

---

(١) رسالة التوحيد للأستاذ الإمام محمد عبده وأنظر العقائد النسفية ص ٣٦

لما أن الرسل قد جاءوا بالبينات ، وهو لا يألوا يتحدى معارضيه أن يأتوا بمثله ، كما أنه ما ينفك يقدم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية ، فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وتوالد الحيوان ودوران الكواكب والأفلاك وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية تنوعا رائع التطابق مع حاجات البشر - آيات لأولى الألباب .

وعندما قارن هذا الكاتب المنصف بين عقلانية القرآن وما جاء فى العهدين القديم والحديث قال :

أن عقلانية القرآن صلبة كأنها الصخر .

ويقول العلامة « رينيه ميليه » :

لقد جاء المسلمون جميعا فى بحث جديد بمبدأ يتفرع عن الدين نفسه هو مبدأ التأمل والبحث وقد مالوا إلى العلوم وبرعوا فيها ، وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء ، وقد وجد منهم كبار الأطباء .

ويقول الدكتور « فرنتوروزنتال » :

أن أعظم نشاط فكرى قام به العرب يبدو لنا جليا فى حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدون نشاطا واجتهاداً عجيبين حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة » .

ويقول « واشنطن ايروينج » :

يحوى القرآن أسمى المبادىء الفكرية وأكثرها فائدة وإخلاصاً .

ويقول جوته، وهؤلاء جميعاً من علماء الغرب :

ان تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية(١) .

ويقول الأستاذ العقاد :

« لقرآن الكريم يطابق العلم أو يوافق العلوم الطبيعية بهذا المعنى الذى تستقيم به العقيدة، ثم يقول :

وفضيلة الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم(٢) .

وخلاصة القول أن القرآن الكريم — كتاب المسلمين الأول والأخير — ملىء بما يثير الانتباه، وينشط العقل، ويدعو إلى النظر والتفكير والنقد والتحليل، وينفر من التقليد والتبعية والانصياع الأبله، وتعطيل الملكات التى منحها الله الانسان، وان كتاباً بهذه المثابة لا يمكن أن يوصف بأنه معوق الفكر(٣) أو مقيد لحريته أو عامل من عوامل اجداب العقلية الإسلامية كما يدعى ذلك بهتانا وزوراً « تنمان » ومن يسير فى فلكه .

التمسك بالنصوص :

وأما زعمهم بأن حزب أهل السنة حزب قوى مستمسك بالنصوص

---

(١) ص ١٢٧ الاستاذ طه سرور بين الحضارات والديانات : بتصرف .
(٢) ص ١٢ من الفلسفة القرآنية — العقاد .
(٣) انظر ص ٣٠ د . كامل جعفر : فى الفلسفة الاسلامية .

وهذا من أسباب تأخر فكر المسلمين — فتلك قضية متفرعة على سابقتها فماذا فى النصوص التى يستمسك بها هذا الحزب القوى ؟

فيها تقدير للعقل وثناء عليه وأمر له بالبحث والنظر والتفكير فى ملكوت السموات والأرض وحث له على مواصلة البحث الوصول إلى السنن والقوانين التى أودعها الله فى هذا الكون كى يستطيع الإنسان عن طريق هذه السنن وتلك النواميس أن يسيطر على الكون وأن يكون سيدة المطاع تحقيقاً للخلافة التى أرادها الله للانسان (إذا قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة) .

من أجل تقدير النصوص نفسها للعقل ، رأى حزب أهل السنة أن يحرص على التمسك لما بها فيها من نور يهدى إلى طريق الرشاد .

إن أهل السنة لم يشكلوا سلطة دينية تحارب الفكر باسم الدين وترهب العقل كما رأينا ذلك عند المسيحيين فى العصور الوسطى ، بل كان غاية فعلهم إستنكار أن يكون للفكر الفلسفى القدح المعلى لدى أولى الأمر ، وان يكون للفلاسفة من المكانة ما لا يمكن أن ترقى إليها مكانة الفقهاء ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، لقد خشى هؤلاء على عقائد المسلمين أن تؤثر عليها هذه الفلسفة — وبخاصة ذات الصبغة اليونانية — وهى فى جملتها ذات تصور للكون والإله يخالف ما عليه الدين الإسلامى ، فإذا أضفنا إلى ذلك العامل النفسى الذى يجعل الإنسان يقسو غالباً تحت تأثير ما هو جديد ، كان لموقفهم هذا ما يبرره ، حيث إنه لم يكن محاربة

للفكر فى حد ذاته ، وإنما كان رصداً لأنماط منه تتعارض مع الدين(١)
فالفكر الإسلامى نما وترعرع فى ظل دين منزه يدعو إلى الوحدانية فى العقيدة ويؤمن إيماناً راسخاً بأن المادة أو الهيولى — كما يسميها الفلاسفة — هى من مبدعات خالق الكون الذى أوجد الأشياء كلها فإذا وجد أهل السنة ما يغير وجه هذه الحقيقة الناصعة فى حقهم أن يغيروه بل ومن واجبهم أن يقفوا فى طريقه ، ومع ذلك لم نسمع أنهم شهروا السيف فى وجه فكر أو نكلوا بصاحب رأى بل كانت حرية الآراء مكفولة وفى ضوء هذا تجدر ملاحظة رأى الدكتور طه حسين الذى يقرر فيه (أن قيام الإسلام لم يتكامل إلا لأنه ثبت أولا وقبل كل شىء حرية الرأى ، معليا لها حريصاً عليها ، وأظن أن كل مفكر حر منصف صادق فى البحث والتاريخ لا يستطيع بحال من الأحوال أن يسجل على الإسلام ولا على الذين أخلصوا له أنهم صادروا الرأى أو قاوموا حرية الرأى بنوع من الأنواع . . . إن كل من يخاصم حرية الرأى فهو عدو للإسلام(٢) .

إن ديننا ينهض على قيم متعالية كهذه يصعب معه إدعاء أن تابعيه كانوا من أسباب التأخر الفكرى لأمتهم كلها .

---

(١) ص ٢٤ د / محمد نصار : فى الفلسفة الإسلامية قضايا ومناقشات طبعة أولى سنة ١٩٨٢ مكتبة الانجلو المصرية .

(٢) ص ١٣٧ د / طه حسين : آراء حرة مجموعة بحوث ـ القاهرة بدون تاريخ .

سلطان أرسطو :

وأما زعمهم بأن سلطان أرسطو قد استبد بعقول العرب :

فهى قضية ينقضها أن « الغزالى بكتابه « تهافت الفلاسفة » نقد أرسطو نقداً مراً وسجل عليه مآخذ كثيرة وزلات عديدة فقد ألف الإمام الغزالى كتابه (تهافت الفلاسفة) كى يبين أن الفلاسفة لم يحالفهم الصواب حين حكموا العقل فيما ليس داخلا فى دائرة إختصاصه وأيضا جانبهم الصواب حين استعملوا العقل فيما هو من إختصاصه ، فكانت بضاعتهم كلها مزجاة ومن هنا فقد حكم بتهافت فكرهم ، انظر إليه وهو يقول .

مقدمة ثالثة :

ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن إعتقاده فى الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان وجوه تهافتهم[1] .

ويقول فى كتابه « المنقذ من الضلال »[2] :

ثم أنى لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتزييف ما يزيف منه علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض .

لقد أخذ الغزالى يدرس فكر الفلاسفة قبل تفنيد آرائهم فيقول فى المنقذ ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأتفقد غوائله وأغواره حتى أطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل إطلاعاً لم أشك فيه .

---

(١) ص ٤٦ من تهافت الفلاسفة .

(٢) ص ١٠٧ .

ولهذا فقد ألف الغزالى كتاباً أبان فيه « مقاصد الفلاسفة » وجاء في مقدمته :

أما بعد : فإنى التمست كلاماً شافياً فى الكشف عن تهافت الفلاسفة وتناقض آرائهم ومكامن تلبيسهم واغوائهم ولا مطمع فى إسعافك إلا بعد تعريفك مذهبهم وإعلامك معتقدهم ، فإن الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها محال بل هو رمى فى العماية والضلال فرأيت أن أقدم على بيان تهافتهم كلاماً وجيزاً مشتملا على حكاية مقاصدهم من علومهم المنطقية — والطبيعة والإلهية من غير تمييز بين الحق منها والباطل ... الخ

ولقد توالت الكتابات المعادية للفلسفة من علماء المسلمين وفقهائهم ومن ذلك مثلا قول ابن الصلاح الشهرزورى :

الفلسفة أس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ، ومن تلبس بها تعلما قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان ، وأى فن أخزى من فن يعمى صاحبه ويظلم قلبه عن نبوة نبينا

وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشرع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين وسائر من يقتدى به أعلام الأمة وسادتها وقادتها ، وقد برأ الله الجميع من معرة ذلك وأدناسه وطهرهم من أوصا به وأما استعمال المصطلحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية

ص ١٠٧ .

فن المنكرات المتبشمة والرقاعات المستحدثة ، وليس للأحكام الشرعية ولله الحمد — افتقار إلى المنطق أصلا[١] والسبب فى ذلك يعود إلى ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته :

من أن المسلمين لم يأخذوا بالأقيسة لمباينتها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد[٢]. ويقول ابن تيمية « ما زال نظار المسلمين لا يلتفتون إلى طريقتهم ، اى طريقة المنطقيين ، بل الأشعرية والمعتزلة والكرامية والشيعة وسائر الطوائف من أهل النظر كانوا يعيبون فسادها »[٣].

وأن فلاسفة الإسلام خالفوا رأيه فى غير ما موضع[٤] ، وأن علماء الكلام زيفوا كثيرا من آراء أرسطو . فالقفطى ينقل أن أبا هاشم الجبائى من معتزلة البصرة ألف كتابا أسماه « التصفح » أبطل فيه مبادئ أرسطو ، والجاحظ يتعرض كثيراً فى كتابه « الحيوان » لنقد آراء أرسطو ، وابن المرتضى صاحب كتاب « المنية والأمل » يذكر أن النظام كثيراً ما عارض آراء أرسطو(٥) .

والعلامة جلال الدين السيوطى يلخص كتاب « الرد على المنطقيين » لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية ويقول فى مقدمة مختصرة :

---

(١) ص ٣٤ - ٣٦ فتاوى ابن الصلاح — القاهرة ١٩٤٨ م .

(٢) ص : ٧٩٩ مقدمة ابن خلدون .

(٣) السيوطى صون المنطق ص : ٣٢٤ .

(٤) ص : ٣٤٠ د / سليمان دنيا التفكير الفلسفى فى الاسلام .

(٥) ص : ٢٧٧ د / محمد البهى الجانب الالهى من التفكير الاسلامى « هامش » .

فما زال الناس قديماً وحديثاً يعيبون المنطق ويذمونه ويؤلفون الكتب في ذمه وابطال قواعده ونقضها . وبيان فساده . وآخر من صنف في ذلك شيخ الإسلام أحد المجتهدين ، تقي بن تيمية ، فله في ذلك كتابان أحدهما صغير ولم أقف عليه ، والآخر مجلد في عشرين كراسا سماه «نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان»[1] .

ويقول الإمام ابن تيمية في مقدمة كتابه المذكور :

أما بعد فإني كنت أعلم أن «المنطق اليوناني» لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد، ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيت من صدق كثير منها ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه وكتبت في ذلك شيئاً ثم لما كنت بالإسكندرية(٢) اجتمع بي من رأيته يعظم المتفلسفة بالتهويل والتقليد فذكرت له بعض ما يستحقونه من التجهيل والتضليل(٣) ثم يقول: وتبين لي أن كثيراً مما ذكروه في أصولهم في الإلهيات ، وفي المنطق هو من أصول فساد قولهم في الإلهيات(٤)... الخ .

بل إن ابن تيمية أهاب بالمسلمين ألا يستعملوا هذا المنطق وأن يصوغوا أدلتهم في عباراتهم بدون التقيد بالمنطق الأرسطاليسي . ويرى ابن تيمية — وهو يبرر عدم إستعمال المنطق بل وعدم صلاحية هذا

---

(١) انظر ص ٧٦ مقدمة كتاب «الرد على المنطقيين» لابن تيمية طبعة ثانية ١٩٧٦ طبعة لاهور باكستان

(٢) في سنة ٧١٩ هـ انظر الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية الشيخ مرعي ص / ١٨١ .

(٣) ص ٣ : الرد على المنطقيين لابن تيمية .

(٤) المصدر السابق .

المنطق — أن العقول إذا اتسعت واتسعت تصوراتها ، اتسعت عباراتها . وإذا ضاقت العقول والعبارات والتصورات كان صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان ، وهذا ما يصيب أهل المنطق اليونانى حيث يراهم ابن تيمية من أضيق الناس عداً وبياناً وأعجزهم تصوراً وتعبيراً . ويذكر أن من العلماء من سلك أهل المنطق من طول وضيق وتكلف وتعسف بعد أن درس المنطق وطبقه فى أبحاثه(١) .

فهذا المنطق طرقه طويلة فارغ، وأمر اصطلاحى وضعه رجل من اليونان غير معصوم من الخطأ ولا يحتاج إليه العقلاء ولا يمكن حصر طرق العلم عليه . ثم إن القول بأننا فى حاجة إليه يعنى القول بأننا فى حاجة إلى اللغة اليونانية لأن هذا المنطق منطقها ويقوم على خصائصها(٢) (ولا يقول أحد إن سائر العقلاء محتاجون إلى هذه اللغة لا سيما من كرمه الله بأشرف اللغات الجامعة لأكمل مراتب البيان المبينة لما تتصوره الأذهان بأوجز لفظ وأكمل تعريف) فليس العقلاء إذن فى حاجة إليه ، وإنما فى حاجة إلى تعلم اللغة العربية لأن المعانى عقلية لا تحتاج إلى اصطلاح خاص(٣) بخلاف اللغة اليونانية التى تحتاج إلى اصطلاح خاص فى معرفة ما يجب معرفته من المعانى فمنطق اليونان متصل بلغتهم ، بل هو يقوم على

---

(١) ص ١٦ ، ١٧ الرد على المنطقيين لابن تيمية طبعة بمباى سنة ١٩٤٧ . وانظر ص ٢٦٥ – ٢٦٦ السيوطى صون المنطق .

(٢) انظر ص ٢٦٣ د/ على سامى النشار . مناهج البحث عند مفكرى الاسلام دار المعارف سنة ١٩٦٦ .

(٣) الرد على المنطقيين . ابن تيمية ص ١٥٨ وانظر : صون المنطق : السيوطى : ص ١٦٦ .

عبقرية تلك اللغة ، فمن الحق إذن أن يستخدمه المسلمون ، أو أنه لا يوثق بعلم من لا يعلم المنطق .

وهذا النقد هو ما اتجه إليه الإمام الشافعى فى نص نقله إلينا السيوطى وهو (ما جهل الناس واختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان ارسطاطاليس) ويعلق السيوطى على هذا بقوله : وأشار الشافعى بذلك إلى ما حدث فى زمن المأمون من القول بخلق القرآن ونفى الرؤية وغير ذلك من البدع . وأن سببها الجهل بالعربية والبلاغة الموضوعة فيها من المعانى والبيان البديع ، الجامع لجميع ذلك قوله « لسان العرب » الجارى عليه نصوص القرآن والسنة وتخريج ما ورد فيها على لسان يونان ومنطق ارسطاطاليس الذى هو فى حيز ، ولسان العرب فى حيز ولم ينزل القرآن ولا أتت السنة إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم فى المحاورة والتخاطب والاحتجاج والاستدلال لا على مصالح يونان ولكل قوم لغة واصطلاح[1] .

لقد تنبه ابن تيمية وغيره إلى إختلاف الطريقين — طريق اليونان وطريق المسلمين — فى العلم وأن كل طريق من هذين الطريقين قد أقام حضارة مباينة للحضارة الأخرى ، وأن كل طريق منهما كان منهج حضارة معينة ، فلما خدع بعض المسلمين بهذا المنطق جاءت صرخة ابن تيمية ، فقد أدرك بعمق بالغ أن أعظم معول ينقض فى أساس الحضارة الإسلامية هو معول المنطق اليونانى . . . إنه سيقوضها بإسم المنهج وسينتج قضايا عامة فى كل الطاقات تمزق الأحكام العامة للمسلمين

---

(١) السيوطى ص ١٥٠ — ١٠١ صون المنطق وانظر ص ١٩٩ — ٢٠٠ د / على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام

فقد تتبع قواعد هذا المنطق وقام بتطبيقها، فلم ينتج له سوى آراء بعيدة كل البعد على ما هو إسلامى، فأعلن أن منطق أرسطو إنما يستند على ميتافيزيقاه وإلهياته، وهذه الإلهيات مخالفة لإلهيات المسلمين ومن هنا نشأت استحالة تطبيق مباحث المنطق الأرسطاليسى على مباحث المسلمين الإلهية. أما تطبيق مباحث المنطق على مختلف العلوم فقد رأى ابن تيمية ما فى مباحث هذا المنطق من تكلف وتصنع وتضييق طرق الذهن فى نطاق معين، هى (طرق صعبة طويلة وعبارات متكلفة حائلة) وليس لها من نتيجة سوى إضاعة الوقت وإتعاب الأذهان (١)، ومن هنا كان معارضة ابن تيمية لمنطق أرسطو بل ورفض هذا المنطق وهدم أسسه وقواعده حتى لا يضيع وقت المسلمين فى دراسته دون فائدة تذكر ولعل هذا هو سر الهجوم العنيف من مفكرى الإسلام على هذا المنطق، ولهذا نرى.

أن ابن تيمية وغيره من مفكرى المسلمين يرد على منطق أرسطو الذى نال به تلك الشهرة الواسعة، فكيف تصدق إذن زعم المستشرقين بأن عقل أرسطو قد سيطر على عقول فلاسفة الإسلام ؟

ومع كل هذا فنحن لا ننفى تأثير الفلسفة اليونانية على الفلسفة الإسلامية بل نرى أن هناك تأثيراً — لا شك فيه وهذا ما سوف نتكلم عنه فى الصفحات التالية.

---

(١) انظر ص ٢٩٠ : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام : د/سامى النشار.

الفصل الثانى

الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانيـــة

الفصل الثانى

الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية

نحن لا ننكر أن التفكير الفلسفى فى الاسلام قد تأثر بالفلسفة اليونانية وأن الفلاسفة المسلمين أخذوا عن أرسطو كثيراً من آرائه وأنهم ـ كذلك ـ أعجبوا بأفلوطين واتبعوه فى عدة نواح ، ولو لم يكرر الكلام لنفد ، ومن ذا ـ الذى لم يتتلمذ على من سبقه ، ويقف أثر من تقدموه ؟

وها نحن أولاء أبناء القرن العشرين لانزال عالة فى كثير من المسائل على أبحاث الأوائل ، غير أننا نخطىء كل الخطأ إذا ذهبنا إلى أن هذه التلمذة كانت مجرد تقليد ومحاكاه ، وأن الفلسفة الاسلامية ليست إلا نسخة منقولة عن أرسطو على زعم « رينان » وغيره أو عن الافلاطونية الحديثة كما يدعى « دوهيم » .

ذلك لأن ـ الثقافة الاسلامية نفذت إليها تيارات متعددة اجتمعت فيها وتفاعلت معها ـ وفى هذا الاجتماع والتفاعل مايولد أفكاراجديدة ، وإذا كانت الفلسفة الاسلامية قد تأثرت بالثقافة اليونانية فانها قد تأثرت كذلك بالمعارف الهندية والفارسية .

هـذا إلى أن تبادل الآراء واستعارتها لا يستلزم دائما استرقاقا وعبوديه ، فالفكرة الواحدة يتناولها بالبحث أشخاص متعددون ، ولا تلبث أن تظهر على أيديهم فى مظاهر مختلفة .

والفيلسوف أن يأخذ عن آخر بعض آرائه ولن يمنعه ذلك من أن يأتي بنظريات خاصة وفلسفة مستقلة .

« فاسبينوزا » مثلا على رغم متابعته الواضحة لديكارت ، يعد بحق صاحب مذهب فلسفي قائم بذاته .

وابن سينا وإن كان تلميذا مخلصا لأرسطو ، قد قال بآراء لم يقل بها أستاذه وفلاسفة الاسلام عامة عاشوا في بيئة وظروف تختلف عن الفلاسفة الآخرين ، ومن الخطأ أن نهمل أثر هذه الظروف في أفكارهم ونظرياتهم واتجاهاتهم .

ومن هذا فقد استطاع العالم الإسلامي أن يكون لنفسه فلسفة تتمشى مع أصوله الدينية وأحواله الاجتماعية(١) ، وليس شيء أعون على تعرف هذه الفلسفة والوقوف على حقيقتها من دراستها دراسة جديدة من خلال ظروف حياتها العقدية وتقاليدها الاجتماعية وما كان يحيط بيئتها من ثقافات متعددة وظروف مختلفة ، ثم بعد ذلك نستطيع الحكم على هذه الفلسفة بما لها وما عليها ، فهذا أقرب من الصواب وأدنى إلى الحق وأبعد عن اصدار حكم عام قائم على التعصب أو عن هوى أو عن غير ذلك .

وبناء على ماسبق يمكننا أن نقرر الرأي الذي يطمئن له القلب ويشهد به الواقع والتاريخ .

---

(١) انظر ص ١٦ – ١٧ جـ ١ د/ إبراهيم مدكور في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه

الرأى المختار :

لا شك أن البناء الفلسفى كالصرح الشامخ يشترك فى تشييده ورفع أسسه وبناء أعمدته - كل من أعطاه الله بصيرة نافذة ، أوحظا من فكر أو إثارة من علم ، على مر العصور وتتابع الأجيال ، أو أن التفكير الفلسفى كمصباح منير يتجمع زيته - كى يستمر ضوؤه - من عصارة عقول المفكرين فى كل زمان ومكان .

ولا يستطيع جيل واحد من المفكرين - مهما عظمت أفكارهم - أن يقيم هذا الصرح الفكرى الشامخ على اكتافه ، ولا أن يملأ هذا المصباح من عصارة عقله ، ذلك لأن هذا المصباح من العمق والاتساع ما يعجز عن ملئه جيل من أجيال الفلاسفة ، وانما يشارك كل بنصيب .

إن الصرح الفلسفى كنهر يستقبل روافد الفكر من هنا وهناك ، كى يشكل تيارا قويا يشق فى عمق وتآلف وتجدد ليحى موات الفكر فى كل طور من أطوار الحياة ويسقى شجرة الرأى الحر المستنير كى تعطى الإنسانية ثمارها الطيبة ، لتصوغ على منوالها مايسعد الإنسان فى كل شأن من شئون معيشته :

ولقد كان لمفكرى اليونان روافد شكلوا بها البدايات العقلية الأولى - أو على الأقل شاركوا فى صنع هذه البدايات - ولقد حملت روافدهم هذه عصارة فكرهم ، وبهذا للفكر حق وباطل ، وفيه غث وسمين - وبه وضوح وغموض - تتخلله أوهام وخرافات وتكتنفه هدايات وضلالات .

ولقد وصلت إلى المسلمين هذه الروافد فاستطاعوا أن يخلصوها من -

الأوشاب التى لحقت بها وأن ينقوها من الأدران التى تعرضت لها ، وأن ينحوا باطلها ويقروا حقها ، وأن يزيدوا عليها من عصارة عقولهم ويجددوا — تيارها بما أضافوه من روافدهم الفكرية المتجددة ، وأن يقدموا للناس فلسفة جديدة خاصة بهم ، تحمل سمتهم وتتسم بطابعهم وتستقل بفكرهم وتعبر عن آرائهم واتجاهاتهم وتبرز — بقوة — ما أبدعوه وما ابتكروه من أبحاث عقلية حول الله والإنسان والأخلاق والكون والحياة ، فكانت أبحاثهم جديدة كل الجدة .

ولم تكن تقليدا — كما يقال — بل كانت تصويبا وتصحيحا وإبداعا واستكمالا لما اعترى فلسفة اليونان من نقص وما شابها من خطأ وغموض وتجديد التيار الفكرى الإنسانى المتوقد بحسب الطاقة الفكرية التى منحها الله لهم .

وها هو الكندى الفيلسوف العربى يبين أن الفلاسفة السابقين قد قصروا عن الوصول إلى الحق ، وأنه قد أكمل ما قد قصروا فيه يقول :

« لابد من إحضار ما قال القدماء فى ذلك قولا تاما على أقصر سبله وأسهلها سلوكا على أبناء هذه السبل ، وتتميم ما لم يقولوا فيه قولا تاما على مجرى عادة اللسان وسنة الزمان وبقدر الطاقة » .

ويقول ابن سينا :

« وأكملنا ما أرادوه وقصروا فيه ولم يبلغوا مأربهم منه وأغضينا عما تخبطوا فيه ، وجعلنا له وجها ومخرجا ، ونحن بدخلته شاعرون ، وعلى باطله واقفون ، فإن جاهرنا بمخالفتهم ففى الشيء

الذى لم يمكن الصبر عليه ، وأما الكثير فقد غطيناه بأغطية التغافل » (١) .

لقد قرأ فلاسفة الإسلام فكر اليونان وقاموا بواجبهم فى تسديده وإصلاح شأنه ، واتخذوا منه منطلقا لفكر جديد وفلسفة جديدة ، وحضارة رائعة رائدة ، ذلك أنه من النادر أن تزدهر حضارة ما ، دون أن تتشكل بطويتها على حضارة تسبقها زمنيا ، وتقدم البذور الأولى أو الدعامة التى تشيد فوقها صرحها الفكرى الجديد . المبدع : وليس الابداع ، خلق أفكار من عدم لاأصل له ، بل الابداع أن تضيف جديدا إلى ما تقدم . يستند فى بنائه وقوامه على أصول سابقة ، ولا ضير على العقل - أى عقل - أن يتناول أمورا تناولها غيره ، فيضيف إليها ويظهرها بصور تتباين فى منهجها مع سابقتها ، ما دام الأعمال الذهنى قائما يتساوق فى سيره والأصول العلمية فى البحث والتنقيب وما دام الفكر وإبداعه ملك للإنسانية وحدها ، وهى الموكلة بأن تعمل على شاكلة نوع منه ، أو تخالفها ، ولا يدعو ذلك إلى إسترقاق أو عبودية المتقدم على المتأخر إطلاقا .

إن الأصالة هى تحقق نحو من التجديد فى عملية التأثر الفكرى ذاتها ، على أن يكون هذا التجديد عملا خالصا لأصحابه ، هم الذين صنعوا ونسجوا لحمته وسداه .

ومن هنا كانت الأصاله - أى أصالة - تتفق فى مدلولها نوعا وتختلف

---

(١) انظر - ابن سينا منطق المشرقيين - القاهرة ١٩٥٠ ص ٥

كيفا من حيث أنها فى صورها الأخيرة تجديد جاء على غير مثال . ومن ثمة فإننا نجد أنفسنا أمام عملية التلاحم الفكرى والحضارى بين الشعوب من جهه والأفراد الممتازة من جهة أخرى . مما لا يدع مجالا للشك أو التردد فى تأثير بعضهم ببعض(١) .

إننا لا ننكر أن فلاسفة الاسلام اقتبسوا من مناهج اليونان واستعاروا بعض طرقهم فى الاستدلال والاستنتاج ، ولكنهم فى ذات الوقت حددوا مواقفهم إزاءها فأبطلوا جانبا واسترضوا جانبا وتعصبوا لآخر وليس فى ذلك ضير أو غبن .

فالفكر الفلسفى أخذ وعطاء فى كل مراحله قديمة وحديثة ، ولقد عرف فلاسفة الاسلام الفلسفة اليونانية فى مراحلها المتعددة ، عرفوا أن هناك فلاسفة قدامى أسموهم أحيانا بالطبيعيين . الذين أعقبهم السوفسطائيون .

كما تنبهوا إلى الفرق بين سقراط وأفلاطون من جهة وبين من سبقهم من فلاسفة الإغريق من جهة أخرى ، حيث لاحظوا أنه بظهور هذين الفيلسوفين تخطى الفكر مرحلة جديدة يمكن أن تسمى مرحلة « التصور العقلى الخالص » ، وعرفوا كذلك أرسطو ، وأعجبهم الكثير من آرائه ، كما أعجبوا كثيرا بأفلوطين مؤسس المدرسة الأفلاطونية الحديثة .

لكن مفكرى الإسلام لم يكونوا مجرد ببغاوات - كما قيل - يرددون ما تلقونه عن هذا الفكر ، ولم يكونوا مجرد نقلة أو شراح أو معلقين ، وإنما أثبتوا فى هذا المجال ذاتهم وتركوا بصماتهم على

---

(١) انظر ص ٢٤ د . جعفر آل ياسين : المدخل إلى الفكر الفلسفى عند العرب : دار الأندلس ، بيروت : طبعه ثالثه ١٩٨٣م

إنتاجهم واتخذوا موقفا نقديا متميزا إزاء الفكر اليوناني ، بل أنهم نقدوا المنطق الأرسطي وكشفوا عيوبه رغم سيطرة هذا المنطق على المجال الثقافي فترة طويلة من الزمن بل أنهم اتبعوا منهجا آخر يخالف منطق القياس ، حيث وضعوا بالفعل المنطق الاستقرائي كاملا (١)

وكان ظهور الاستقراء على يد فلاسفة الإسلام بدء فتح جديد في عالم التقدم والحضارة ، ذلك أن تقدم البحث العلمي رهين بالمنهج بحيث يدور معه وجودا وعدما ، ومن شرط قيام العلم أن يكون جامعا لشتات الجزئيات المبعثرة لتفسير ما قد يوجد بينها من روابط أو علاقات تنظمها قوانين (٢) .

وهذا ما فطن إليه الحسن بن الهيثم وهو يجرى تجاربه حيث يقول : في كتابه « المناظر » .

يبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ، ويستفاد من هذا أن بعض مفكرى الإسلام قد سار في بحوثه على المنهج العلمى الحديث لدى فلاسفة التجربة في القرن العشرين الميلادى ، ذلك المنهج الذى يتلخص في البدء بالملاحظة أو التجربة ثم الفرض ثم الاستعانة بالقياس في التحقق من صدق الفرض للوصول إلى القانون أو النظرية .

ومن الملاحظ أن قوام هذا المنهج إستقراء ، فالاستقراء يفيد

---

(١) ص ٤٩ - ٥٠ ، د / كمال جعفر : في الفلسفة الإسلامية .
(١) ص ٢٧١ : مناهج البحث العلمى عند العرب د / جلال موسى .

الجانب الوصفي والقياس يفيد الجانب العلمي ، فاقتصار أي علم على جانب واحد من هذين الجانبين يؤدي إلى القصور والعجز عن التطور(١) .

وعلى هذا الأساس تنبه علماء العرب إلى عقم المنهج اليوناني الذي كان القياس الصوري أداة له ، فقد كان يبتدىء بمقدمات عامة وينتهي إلى نتائج جزئية .

ومن هنا كان منهجا لإقامة البرهان على حقيقة معلومة ، لا لبكشف عن حقيقة جديدة .

ولذا لزم البحث عن أداة مغايرة بحيث يستطاع بها كشف الجديد ولا تقف عند حد ما هو معلوم فكان المنهج الاستقرائي هو الأداة الجديدة (٢) .

ولا ريب أنه كان لدى اليونان نوع من هذا المنهج ، ولكنهم لم يوغلوا فيه ، كما أوغل علماء الإسلام ، حيث غاب القياس على أبحاثهم وكان عائقا لهم عن الأخذ بالاستقراء على حقيقته . وقد خطا المسلمون خطوات كبيرة في الأخذ بالاستقراء .

وكان لمفكري الإسلام جهود لا تنكر في العلوم الكونية وغيرها فقد حاولوا إزاحة الستار عن بعض القوانين المسيطرة على ظواهر الكون وأجروا تجاربهم للتحقق من صحة قياساتهم وأرصادهم وهم في

---

(١) انظر ص ١٩٨ – ١٩٩ د/ عبد اللطيف العبد : دراسات في الفلسفة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ م .

(٢) ص ٦٤ : المنطق الحديث ومناهج البحث : د/ محمود قاسم .

هنا يختلفون عن اليونان ، لأن المسلمين لم يقفوا عند حدود العلم النظرى بل تابعوا المنهج حتى وصلوا به إلى التطبيق ، ومن هنا اتسم علمهم بالموضوعية والمنهجية(١) .

ومن ثمة فإن الفكر الإسلامى ليس صورة متشابهة من الفكر اليونانى فالمسلمون لم يأخذوا فقط من اليونان ، فقد عرفوا الفلسفة الهندية ببغداد حيث وصلت إليهم عن طريق الإتصال الاقتصادى بين المسلمين وأهل الهند منذ فتحت السند فى أيام بنى أمية ، كما وصلت إليهم أيضا عن طريق الكتب الهندية التى ترجمت للمسلمين إبان حكم المنصور ، ووصلت إليهم أخيرا حين فتح محمود سبكتكين الملقب بيمين الدولة وأمين الملة بلاد الهند .

فكان هذا الفتح علة إنتشار الآراء الهندية ، المختلفة فى بلاد المسلمين ، كما كان هذا الفتح أيضا علة انتشار الاسلام فى بلاد الهند .

وعرفوا كذلك الفلسفة الفارسية منذ بدأ اختلاط العرب بالفرس يشتد من عهد بنى أمية وظهرت الكتب الفارسية مترجمة أيام العباسيين بفضل ابن المقفع وبنى نوبخت .

أجل لقد عرف العرب كل هذا لانتاج حياتهم العقلية ، فالفلسفة الاسلامية لم تخرج إلى الوجود إلا نتيجة لتفاعلات بين النزعات الفكرية الاسلامية وبين تيارات الفكر الأجنبى(٢) .

---

(١) ص ١٣٠ د / عبد اللطيف : دراسات فى الفلسفة الإسلامية .
(٢) ص ٣٤٤ د / محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية .

وهذا لاعيب فيه ولا ينقص من قيمتها أو يحط من شأنها أو يقلل من منزلتها ، فإن الآراء والأفكار لا توجد ولا تعيش إلا بهذه الطريقة ولا يتولد بعضها من بعض إلا بالاقتباس والاستعارة والنقل دون أن يستلزم ذلك خضوعا وتبعية .

فالانسان إجتماعى تعاونى لاسيما فى عمله العقلى الذى هو عنوان مجده وآية عظمته ، فلعمله دائما ينابيع يستقى منها وأصول يبنى عليها ، فالأعمال الفكرية ليست وليدة يوم أو شهر أو سنة ، ولا هى مقتصرة على شعب دون آخر ، فهى تتوالى ببطء وتنمو فى مخيلة الشعوب على أجيال متطاولة ثم يتغذى بعضها من بعض ويتولد بعضها من بعض وتنتقل من صورة إلى أخرى وإن لم يفطن لها التاريخ . فالفكرة الواحدة يتلقفها أشخاص متعددون ثم لا تلبث أن تظهر على أيديهم فى مظاهر مختلفة .

ومن هنا فلاعيب أن تتقابل آراء عدة ومذاهب فلسفية ، على فكرة إنسانية واحدة ، ولا عيب كذلك فى أن يأخذ الانسان من أخيه الإنسان ما قد وصل إليه فى ظروف حضارية وتاريخية وبيئية مهيأة ومواتية . إنما العيب كل العيب أن يظل عاجزا مقصرا عن أخيه الذى كان تبعا له ومستقى لأفكاره .

فلكل فيلسوف الحق فى أن يأخذ عن أى فيلسوف آخر ، فهذا لا أهمية له ، ولكن الذى له كل الأهمية إنما هو ما فعله الشخص المبدع بهذه الآراء ، وكيف سلك بإزائها وأى نتائج استخلص منها ؟ :

وإذا أردنا أن نقف على مبلغ مافعله فلاسفة الاسلام بفكر الأوائل وكيف سلكوا بإزائها ، وأى نتائج استخلصوها منها ، فما علينا إلا أن

نقارنهم بالسريان الذين كانوا أقرب منهم إلى هذه الفلسفة وأشد تأثرا بها قبل الفتح الاسلامي بزمن طويل .

ومع هذا فقد عجزوا عن أن يخرجوا مفكرا واحداً تصح مقارنته بجابر حيان وابن الهيثم وابن سينا والفارابي والغزالي وابن رشد وابن خلدون وابن تيمية وغيرهم .

ويجب أن نقارنهم أيضا بالبيزنطيين الذين ورثوا الفلسفة اليونانية فظلت كتبها في الأقبية والسراديب حتى جاء المسلمون فانتشلوها وأخرجوها من مكامنها .

فالدولة البيزنطية لم تنجب طوال تاريخها مفكرين عظماء ، كالذين أنجبهم الاسلام ، ولم تشهد قيام نهضة كالتي قامت في بلاد الاسلام (١) .

ولئن نفذت إلى الثقافة الاسلامية تيارات مختلفة اجتمعت فيها وتفاعلت معها إلا أنها مع ذلك أنبتت نباتا جديدا طيبا حيث استطاع فلاسفة الاسلام أن يخلقوا بيئة عقلية خاصة بهم وينشئوا لأنفسهم حياة فكرية مستقلة ليست هي حياة اليونان أو أفكار الفرس أو تعاليم الهنود . . . . إنها شيء من ذلك ، ولكنها أيضا شيء فوق ذلك ، فيها من تلك الحيوات بمقدار ما في الشجرة من البذرة ، ثم فيها بعد ذلك ، وقبل ذلك مجموعة من الطاقات والقوى والمواهب الذاتية التي تغذوها وتمدها بالحياة حتى غدت دوحة وارفة الظل ، طيبة الثمر ، تؤتي أكلها كل حين ، إن تطور الحياة ورقي الحضارة يحتم أن يأخذ اللاحق من السابق .

---

(١) ص ٣٤٦ – ٣٤٧ من المصدر السابق .

وهذا — دون شك — لا يعيب فلاسفة الاسلام ، وليس بدعاً من الأمر ، فإن ظاهرة التأثير والتأثر حقيقة واقعة لا يستطيع مفكر أن يتجاهلها أو يتنكر لها ، كما قلنا سابقا .

إن البشرية كلها — الشاملة لجماعاتها المتفرقة — شريكة فى بناء صرحها الفكرى العظيم ، وشريكة فى كل مايصدر عن هذه الجماعات من حضارات ومدنيات ولكل جماعة من هذه الجماعات نصيب فى هذه الثروة العلمية والفكرية العامة .

إن الجماعة التى تكون فى وقت من الأوقات معطية لا بد أنها كانت فى وقت من الأوقات آخذه .

إننا نرى أن الفكرة تنبت وليدة فى بيئة من البيئات فتتلقفها بيئة أخرى وما تزال تحنو عليها حتى تخرج من بين يدها ثمرة ناضجة كاملة التكوين .

يقول : « دى لاس أوليرى »(١) .

« بين الحضارة والمرض المعدى بعض وجه الشبه فكلاهما ينقل من جماعة إلى أخرى باللمس والاتصال .

وكلما انتشر أحدهما تبادر إلى أذهاننا أن نتساءل من أين جاءت العدوى ؟ وفى كلا الحالين على السواء ، تجد سؤالا لاسبيل إلى الاجابة عليه . أين الموطن الأصلى ؟ وهل ترجع كل مظاهر التمشى إلى مصدر أصلى ؟ أم مصادر متعددة مستقل بعضها عن بعض ؟ »

(١) انظر علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب نقلا من د/ سليمان دنيا ص ٢٧٦ بتصرف .

ولقد تأثر فلاسفة اليونان ـ من قبل ـ بروافد فكرية عديدة أثرت في فكرهم وفي كثير من آرائهم وشكلت روافدهم ، ولم ينكر أحد عليهم هذا .

يقول صاحب « تاريخ الفلسفة العربية » عن تأثر اليونان بغيرهم وبالفكر المصري خاصة :

« لا ريب في أن تاريخ الحضارة الانسانية يرتقي في مصر إلى عهد لم تسبقه إليه أية أمة أخرى من أمم العالم القديم . ففي الألف الخامس قبل الميلاد وجد المصريون أساسا للتوقيت ولمساحة الأراضي وكان النظام الاجتماعي سائدا في مدنهم وقراهم ، وفي الألف الثاني كانت طيبة عاصمة العالم تنشر في آسيا أضواء الحضارة المصرية .

وكانت مصر في نظر مفكري اليونان الأول بلد علم ومعارف يؤمونها قصد الاطلاع والاستفادة ، ولا شك في أنهم أخذوا عنها الشيء الكثير .

وقد عرف المصريون كروية الشمس والقمر وأن النجوم من عنصر ناري وفسروا الخسوف والكسوف .

أما في حقل الطبيعيات فقد قالوا : إن العالم مؤلف من ربعة عناصر أساسها الماء ، وقد أخذ اليونان عن المصريين هذه المعلومات كلها كما أخذوا غيرها ، وجعلوا منها نقط انطلاق تفكيرهم العملي والفلسفي .

أما في حقل المعرفة النظرية فقد سار المصريون شوطاً بعيداً بداعي تفكيرهم الديني .

والديانة المصرية أبعد الديانات القديمة أثراً فى تطور الفكر البشرى .

فالمصريون أول من نظم الآلهة وحددوا العلاقات بينهم وبين البشر وهم أول من آمن بالحياة الآخرى وأول من أثبت قضية الثواب والعقاب ، وهم أول من جعل الثواب والعقاب فى الآخرة . رهن السلوك والطهارة الخلقية لانتيجة التمسك بطقوس شكلية ، وقد سبقوا فى ذلك أنبياء اليهود .

ولعل أبرز ما فى الديانة المصرية اعتقادها بخلود النفس واعتبار هذه النفس مغايرة للجسد ، وهكذا وضع المصريون الأسس العقيدة الثنائية التى ترجع ما فى الكون إلى جوهرين .

... أحدهما : روحانى .

... والثانى : مادى .

ولعل المصريين هم أول من أقام الكلمة وزنا وجعل منها عنصرا أخلاقيا ، ولعل كهنتهم أول من أوجد أصول الجدل حتى أن جدليى اليونان كانوا يؤمون هيا كلهم ويتتلمذون عليهم .

إن الأبحاث العلمية لم تتوصل بعد إلى معرفة مدى تأثير الحضارة المصرية والفكر المصرى فى تطور الفكر الانسانى . ولكن القليل الذى توصل إليه العلماء يدل – ولاشك – على أن الديانة والفلسفة اليونانيتين بشكليها الكلاسيكى والاسكندرى والفكر الحديث بجملته أن كل ذلك

مدين بالكثير لمصر (١) .

ويقول الأستاذ « ميير » الألماني :

إن المدنية اليونانية لم تبدأ في الارتقاء الحقيقي إلا بعد أن احتكت بالشرق « أيوليا » وأيونيا » في آسيا الصغرى حيث كان في تلك البقاع مدنية أرقى من مدنية الإغريق (٢) .

ويقول الأستاذ « دنكر »(٣) :

لم يبق من شيء في مدينة اليونان لم يتأثر من اتصالهم بمدنيات آسيا الصغرى ، حتى دينهم فانه على الرغم من أنه يكاد يكون خاصا باليونان ونشأته ذاتية فانه تأثر بأديان من الشرق . واقتبس الكثير من أصولها ومعتقداتها .

ويقول صاحب « تاريخ الفلسفة الشرقية »(٤) :

إن « ديوجين لايرس » المؤرخ الاغريقي الشهير الذي عاش في القرن الثالث قبل المسيح يحدثنا في كتابه « حياة الفلاسفة » عن فلسفة الشرق في العصور الغابرة حديثا يثبت أن الشرق قد سبق الغرب إلى النظر العقلي وأنه كان أستاذه وملهمه .

---

(١) انظر ص ١٨ - ١٩ ج ١ تاريخ الفلسفة العربية : الفاخوري وآخر .
(٢) ص ١٨ اسماعيل مظهر فلسفة اللذة والألم .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الدكتور محمد غلاب ص ١٤ .

ويقول « الفارابى » فى كتابه « تحصيل السعادة » :

وهذا العلم على ما يقال كان فى القديم فى الكلدانيين وهم أهل العراق ثم صار إلى أهل مصر ، ثم انتقل إلى اليونانيين ولم يزل إلى أن انتقل إلى السوريانيين ثم إلى العرب »(١) .

ويقول صاحب « تاريخ الفلسفة الأوربية »(٢) .

أجل لقد وجد العقل مع الانسان وبقى هو فى جوهره واستخدمه الأمم الشرقية فى الماضى السحيق ، فاستحدثت الصناعات والعلوم والفنون ولقنتها لليونان ، أغنتهم عن بذل الجهد والوقت فى استكشافها بأنفسهم وفضلا عن العلم والفنون نجد عند الأمم الشرقية القديمة قصصا دينية وأفكارا فى العالم والحياة إذا اعتبرنا موضوعها ومغزاها رأيناها حقيقة بأن تسمى فلسفة .

فقد نظروا فى اسمى المسائل مثل الوجود والتغير والخير والشر — والأصل والمصير ، ولم تخرج الفلسفة فيما بعد عن هذه النظريات الكبرى بل قد نستطيع أن نجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية أو أصلا قد تكون نبتت منه .

ويقول الدكتور « محمد على أبو ريان »(٣) :

وما الفكر الفلسفى إلا حصيلة أفكار البشر خلال التطور التاريخى

---

(١) ص ٤ من الفلسفة الاسلامية للدكتور الأهوانى .

(٢) انظر ص ٢٩٧ — ٢٩٨ د / سليمان دنيا ، التفكير الفلسفى فى الاسلام .

(٣) ص ١٨ ، ١٩ الفلسفة ومباحثها : طبعة ثالثة ١٩٧٤

للانسانية ، والعقل واحد عند البشر جميعا ، وإنما الاختلاف فى الصياغة وفى طريقة تناول الأفكار وفى الظروف التاريخية والحلية لكل مجتمع .

ومن العناصر الثانية التى تشهد بكفاءة العقلية الإسلامية فى مجال الفكر(١) كما تشهد ببطلان اتهامها بالتفريق والتبديد والاقتصار على إدراك الجزئيات والمنثورات إدراك حقيقة التطور الفكرى المستمر وتصوره نسيجا لم تتم خيوطه بعد ، وإن كان هناك الأمل فى الوصول إلى حبكته وتمامه بفضل تواتر الجهد الإنسانى عبر الزمان والمكان .

فأبو بكر الرازى « محمد بن زكريا » الفيلسوف والطبيب المشهور يعبر عن ذلك أبلغ تعبير حين يشير إلى أن الفكر بناء متواصل تسهم فيه الأجيال المتعاقبة من المفكرين ، وليس تاريخ الفلسفة فى الحقيقة إلا استعراضا لهذه الجهود المتواصلة فى إقامة هذا البناء .

يقول الرازى :

اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر فى الفلسفة ، وواظب على ذلك واجتهد فيه وبحث عن الأشياء اختلفوا فيها لدقته وصعوبته ، علم علم من تقدمه منهم وحفظه واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخر ، لأنه مبهر بما علم من تقدمه ، وفطن لفوائد أخرى واستفضلها ، إذا كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل(٢) .

---

(١) راجع ص ٥٤ / كتاب جعفر فى الفلسفة الاسلامية .

(٢) انظر رسائل فلسفية للرازى طبعة ١٩٣٩ م مؤلف رقم ٢٢ تحقيق كراوى وانظر ص ٤٠ د / كمال جعفر فى الفلسفة الاسلامية دراسة ونصوص تنشر لأول مرة .

إن الرازى يوجه أنظارنا إلى النمو فى الفهم الفلسفى وإلى تطور الفكر نتيجة الاضافة والتحرير ومن هنا كان رائعا ما قدمه فلاسفة الاسلام فى تطوير المناهج ومن ابتكارات واستكشافات فى الحقول النظرية وغيرها سواء كان ذلك فى الرياضيات وفروعها ، أو الموضوعات الانسانية ومناهجها — مضافا إلى ذلك غلبة روح الموضوعية عليهم وتميزهم بهذه الصفة بشكل يثير الدهش والاعجاب ، مما كانت تقصر عنه عقول العلماء الغربيين فى بدء نهضتهم العلمية . فهذا ابن الهيثم — العالم الفيلسوف يقول فى مقدمة كتابه الشهير « المناظر » ما نصه :

إن غرضه — أى ابن الهيثم — فى جميع مايستقريه ويتصفحه استعمال العدل لا الهوى وأنه يتحرى فى سائر ما يميزه وينتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء حتى يظفر بالحقيقة ويصل إلى اليقين[1] وهذا النظام المعتزلى يقـــول :

إن الشك والتجربة هما الركنان الأساسيان للبحث[2] .

ولن نجاوز الحقيقة إذا قلنا . إن فى هذا التجديد والتحديد لدى النزعة العلمية التى يمثلها الفكر الاسلامى منذ زمن بعيد ما يجعل منه نموذجا يحتذى فى الطريقة والمنهج حتى عصرنا هذا .

فإن العلم الإسلامى كان أكثر تجربة من العلم اليونانى وأكثر اعتمادا

---

(١) انظر د/ عبد الحليم منتصر . تاريخ العلم ص ٨٨ — ٨٩ طبعة خامسة القاهرة ١٩٧٣

(٢) راجع ص ٧ ، د/ جعفر آل ياسين . مدخل إلى الفكر الفلسفى عند العرب

من المشكلات الميتافيزيقية التي تعامل معها الفلاسفة المشاؤون يضاف إلى ذلك أن علماء الاسلام أدركوا أن العقل النظرى لوحده غير كاف لبناء العلم من حيث أن التجريد لا يقود حتما إلى نتائج عملية في التطبيق . وفى إدراكهم لهذه الصورة سجلوا أصالتهم وتفاوتهم بالنسبة للحضارات السابقة عليهم . ومن ثمة فلا لوم على فلاسفة المسلمين إذا ما اتخذوا من أفكار من سبقهم منطلقا لحياة فكرية جديدة .

لقد ارتكز الفكر اليونانى على ما جادت به العقول الإنسانية ، ثم قدمها للعالم كله فى صورة فلسفية واعية .

وكذلك ارتكز فلاسفة الاسلام على الأفكار المتقدمة التى كانت تمد إلى البيئة الاسلامية فى موجات متتابعة وتلتحم هذه الأفكار مع العقل المسلم المتفتح — بتوجيه القرآن الكريم — فينفعل بها ويتأثر بالجيد منها ثم يزيد عليها بادراكه الفردية فيشكل النموذج الرفيع الذى وصلت به الحضارة الاسلامية إلى مستوى الريادة الذى أثبته لها المنصفون .

أجل ارتكز فلاسفة الاسلام على أفكار متقدميهم فانطلقوا منها إلى بناء فكر فلسفى إسلامى يختلف فى معالمه ومراميه عن سابقه .

فالفكرة الفلسفية — على حد تعبير أبى ريده[1] عندما تنتقل إلى بيئة ثقافيه أخرى وتدخل نظام فكرى جديد تتغير من وجوه شتى ، وهى فى هذه الحال ليست ملكا لأهلها الأولين ، بل ملكا لأصحابها الجدد

---

(١) انظر رسائل الكندى .

الذين اتخذوا منها نقطة بداية لنزعات جديدة تناسب روحهم واتجاه تفكيرهم الفلسفي .

وعلى حد تعبير الدكتور إبراهيم مدكور[١] .

بأنه كيفما كانت الأفكار الأجنبية التي سرت إلى المسلمين فإنهم استطاعوا أن يخلقوا عقلية خاصة بهم ، ويكونوا حياة فكرية مستقلة ومن الخطأ أن نحاول تفسير ظواهر هذه الحياة في ضوء المؤثرات الخارجية وحدها التي يظن أنها لم تهضم ولم تتأقلم ولم تنسجم مع العالم الاسلامي ، أو أن تستهين بشأن العوامل الداخلية التي امتزجت بها فكانت أوثق إتصالا وانفذ أثرا وفي وسعنا أن نذهب إلى ما هو أبعد من هذا فنقرر أنه ليس ثمة بحث عقلي عرفه المسلمون إلا وله نقطة بدء إسلامية بدأ أولا في ضوء تعاليم الإسلام وشب تحت كنفه وتغذى ما استطاع من الكتاب والسنة ، ثم لم يلبث أن سعى وراء غذاء خارجي ومدد أجنبي فنما وترعرع وتشعب ، ولكنه بقى وثيق الصلة بالبيئة التي نشأ فيها والظروف المحيطة به .

إننا نقول مع الدكتور إبراهيم مدكور :

فكل ما ظهر في العالم الاسلامي من آراء ومذاهب يحمل طابع الاسلام ومن ثم فلا يمكن فهم الفلسفة الاسلامية إلا بعد فهم الاسلام ، لأنها تأثرت به إلى أبعد حد ممكن ، فهي إسلامية في مشاكلها والظروف التي مهدت لها وإسلامية أيضا في غاياتها وأهدافها ، وإسلامية أخيرا بجامعة الاسلام في باقاتها من شتى الحضارات ومختلف التعاليم .

---

(١) ص : ١٩٥ - ١٩٦ في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيق .

ونقول مع الأستاذ الأكبر « مصطفى عبد الرازق » :

والعوامل الأجنبية المؤثرة في الفكر الإسلامي وتطوره ، مهما يكن من شأنها ، فهي أحداث طارئة عليه ، صادفته شيئاً قائماً بنفسه فأصابت به لم تخلقه من عدم وكان بينهما تمازج أو تدافع ولكنها على كل حال لم تمح جوهره محواً (١) .

إننا نرى أن المسلمين قد انتجوا فلسفة لها من القيمة والأصالة ومن العمق والقدرة ما أنها أثرت في حضارة العالم . تلك الحضارة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا .

إن فلاسفة الإسلام قد أبدعوا وشاركوا في بناء صرح الفلسفة وأثروا روافدها بأفكارهم فتدفقت إنتاجا ومدنية لأنهم كأبناء الإنسانية أعطوا لها كما أخذوا منها وشاركوا في حضارتها وتقدمها وكانت لهم سمات تميزهم عن غيرهم شأنهم في ذلك شأن سائر الأمم .

يقول « العقاد » :

الأصالة قدر مشترك بين جميع الحضارات ، فلكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو انفردت بالنقل او خلت من السمة التي تميزها بين سماتها الحضارية (٢) .

وحتى نقف على الأصالة في طبيعة الفلسفة الاسلامية ينبغي أن نتبع منهج المستشرق « هورتن » ، إذ يقول عنها تحت عنوان « فلسفة » في دائرة المعارف الاسلامية :

---

(١) ص : ٩٨ من التمهيد

« والتقدير ما للفلسفة الإسلامية من الشأن يجب البدء ببيان ما في مذهب أرسطو من النقص . فلا نظير لأرسطو في ضبط المعاني الجزئية غير أنه لم ينجح في وضع نسق شامل للعالم منظورا كله إليه من خلال صورة ذهنية واحدة . فهو لم يرد جملة العالم كله إلى مبدأ واحد ، إنما هي إثنينية تتقابل فيها الهيولى القديمة مع الله .

وهذا المذهب الارسططاليسي فيه عناصر علمية نظرية محصة ، لكن النزوع القوى فيه إلى الإعتماد على ما في العالم الخارجي وحده يشوبها ويبطلها : أنى جاءت الصور إذا كان الله عقلا صرفا ليس له إرادة ؟ وهو يحرك العالم باعتباره معشوقا لا كعلة فاعلة ثم هو يجهل الجزئيات ؟ ذلك مذهب في الألوهية ليس بفلسفي »(١) .

« هورتن » إذن يأخذ على أرسطو أنه لم يستطع رد جملة العالم إلى علة واحدة ما دامت الهيولى القديمة موجودة مع الله . كما أنه لم يستطع وضع نظرية واحدة شاملة تنصهر فيها جميع الجزئيات في العالم وتضيع معالمها في كل أكبر منها .

كذلك لم يستطع تفسير حقيقة صلة الله بالعالم وكيف يؤثر فيه إذا كان مجرد علة غائية . ثم هو يجهل ما يجرى في هذا العالم من أمور وحوادث جزئية .

هذه هي جملة المآخذ التي يأخذها « هورتن » على أرسطو . ويمكن أن نضيف إليها أيضا إضافات طفيفة تسير في الاتجاه . فأرسطو ترك في مذهبه نقاطا كثيرة معلقة دون أن يتصدى لحلها .

---

(١) ص ٢٢ — ٣٤ تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية : مصطفى عبد الرازق طبعة ثالثة .

كما أن فى مذهبه نقاطا غامضة حينا ومتعارضة بعضها مع بعض آخر دون أن يكلف نفسه مؤونة توضيحها أو إزالة ما فيها من غموض .

وأخيراً إن مذهب أرسطو معارض للاسلام فى كثير من جوانبه ، كما أن فى الإسلام قضايا كثيرة لم يصل إليها فكر أرسطو أو غير أرسطو .

وفى هذه النقاط جميعا تتفجر عبقرية فلاسفة الإسلام ـ وسنشهد معركة فكرية حامية الوطيس لاتخاذ موقف معين منها ، مما نتج عنه سد جميع الثغرات فى فلسفة أرسطو وجلاء كل غامض فيها والبت فى كل ما تركه معلقا بدون حل وإحكام الصلة بين الله والعالم ، وتحويل الله من علة غائية إلى علة فاعلة وجعله محيطا بكل شىء علما ، وصهرا الجزئيات جميعا فى نظرة واحدة شاملة تستغرق كل شىء ومحاولة التوفيق بين الفلسفة والدين وإزالة ما بينهما من جفاء ثبت فى الأذهان ، بل وبإضافة قضايا جديدة إلى الفلسفة قال بها الدين وجهلتها الفلسفة ، كل ذلك بأدوات الفلسفة نفسها وبروح فلسفى وتفكير فلسفى لا أثر فيه لنزوة أو هوى أو عاطفة ،

بحيث أنه لو بعث أرسطو حيا لاستغاث من استخدام فلسفته من قبل أخلص تلاميذه والمعجبين به من المسلمين للوصول إلى نتائج لا يقرها هو ولا يؤمن بها ، بل ويذهب فى معارضتها إلى حد الشطط (١) .

---

(١) انظر ص ٣٥٩ د / مرحبا من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية .

وما فعله فلاسفة الإسلام هنا هو لب الأصالة والابداع : إصلاح من الفكر ما فسد - إيضاح ما غمض - بناء ما نقص - تقوية ماوهن .

إن ما ساهم به فلاسفة الإسلام فى ميدان الانتاج الفكرى ، وإن كان تفيئاً بالقياس إلى ما ساهموا به فى ميادين الحياة العقلية الأخرى إلا أنه على كل حال ثروة ضخمة لا يستهان بها

فقد أتوا بأشياء جديدة وتمخضت أذهانهم عن أمور لا عهد لليونان بها ، ولم تكن لها نفس الأهمية التى ستكون لها عند المسلمين .

نذكر منها مثلا قولهم فى الممكن والواجب والعلم الإلهى والشك والسببية والإرادة والقدرة والخلق والنبوة ومحاوله توجيه هذه النظريات جميعا بحيث يحدث تقارب بين العقل والنقل وبحيث ينتهون إلى وضع نظرية قائمة برأسها يبينون فيها أسس التوفيق بين الفلسفة والشريعة .

وأخيراً نجد بين ذخائر المسلمين التى ينفردون بها عن اليونان ويسبقون بها علماء الإجتماع المحدثين فلسفة التاريخ وعلم العمران (علم الاجتماع).

(١) ص ٣٥٥ المصدر السابق .

خاتمة

وبعد . . . فإنني أضع أمام القارىء الكريم بعض أقوال المنصفين وما تحدثوا به عن فكر المسلمين وحضارة المسلمين وأثر المسلمين وأترك الحكم له في قضية الإبداع الفلسفي والابتكار الفكري .

فقد يتحرى الصدق والحق والانصاف فيحكم لهم ، أو يميل مع الهوى والاجحاف فيحيف ويحكم عليهم .

يقول « بريفولت » في كتابه « بناء الإنسانية »(١) .

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ، ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا .

أنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم كما رأيناه لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج إمتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

---

(١) نقلا عن الدكتور / عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الاسلام .

ولقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة وجميع المعلومات الايجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبى :

كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الاسكندرية فى عهدها الهلينى .

أما ما ندعوه العلم فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثه ، لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضة إلى صـــورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربى(١) .

ويقول « جستاف لوبون » :

أنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم فى العالم ، وأن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم ، فلاتشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التى أعتنقت دينهم والعرب هم الذين هزبوا ـ بتأثيرهم ـ البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، والعرب هم الذين فتحوا لأوربه ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية فكانوا ممدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون . . . »

---

(١) انظر : محمد اقبال فى تجديد الفكر الدينى ترجمة العقاد .

وظلت ترجمات كتب العرب — ولا سيما الكتب العلميـــة — مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس في جامعات أوربا خمسة قرون أو ستة قرون ...

و إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة .

فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة إعترافا أبديا(١) .

هذا ومن المعروف أن المنهج التجريبي الإسلامي وصل إلى أوربا فاقامت عليه حضارتها الشامخة ، فقـد كانت أسبانيا المعبر الأكبر لهذا المنهج إلى فرنسا ، فقـــد تكونت في طليطله أول مدرسة لترجمة الفلسفة العربية والعلم العربي .. وكانت الجسر الكبير لنقل هذا التراث .

ومما لا شك فيه أن علم العرب جميعا قد وصل إلى جامعات فرنسا وجامعة باريس على الخصوص . كما كانت صقلية أيضا معبرا آخر وأقبل عدد كبير من الانجليز إلى أسبانيا وتعلموا العربية وشاركوا في حركة نقل التراث وبخاصة العلمي .

ثم تنبه « روجر بـيكون » إلى أهمية العلم العربي وكان من رواده الأول ، فنقل الكثير إلى انجلترا وأوكسفورد بالذات .

---

(١) انظر ص ١٢٢ د/ سليمان دنيا « التفكير الفلسفي في الإسلام » .

وسواء أكان بيكون قد عرف العربية أم لم يعرفها ، فانه عرف المنهج الاسلامى التجريبى . وكان ينادى بأن معرفة العرب وعلمهم هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريه . ومن الثابت أيضا أن « روجر بيكون » نقل إلى انجلترا أيضا عددا كبيرا من الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية وقد ألهم « روجر بيكون » « فرنسيس بيكون » أول تجريبى حقيقى فى العصور الحديثة ، ثم وجد المنهج الاسلامى كاملا فى كتابات « جون استيوارت مل » .

ولا شك أن منهجه هو منهج العرب ولا ـ شك ـ أن الرجل شعر بما فعل فى أنه أخذ علم المسلمين ونسبه إلى نفسه ، ومن المؤسف أن يستعمل هذا العلم فى التشهير بالنبى صلى الله عليه وسلم فى كتابه : « نظام القياس » مع أنه أخذ هذا العلم من أتباع هذا النبى الكريم وأخذ المنهج الذى يؤدى ـ هو وحده ـ إلى إقامة حضارة إنسانية وعلم حقيقى .

وسواء اعترف بفضل أصحاب هـــذا المنهج الحقيقيين أو لم يعترف . فنحن بناته الأولون وأساتذة الإنسانية فى حضارتها الحديثة (١) .

وذلك بشهادة كثير من المنصفين الذين سجلوا للحق والتاريخ بعض

---

(١) انظر ص ٤٤ ـ ٤٥ جـ ١ من نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام د على سامى النشار .

ما قدمه فلاسفة الإسلام لأوربا خاصة والإنسانية عامة وسوف نكتفى فى هذا المجال بما قررته صاحبة كتاب : « شمس الله تشرق على الغرب » الدكتورة « سجريد هونكه » حيث تقول :

يبدو أن الأوان قد حان بالنسبة للغرب لكى يتحدث بشكل صدق وإخلاص عن العرب ، هـذا الشعب الذى أثر بشكل عمق فى مجرى الأحداث العالمية ، والذى يدين له الغرب والإنسانية جمعاء بالشيء الكثير .

ولعل التعصب هو الذى حمل الغرب دائما على تشويه منجزات العرب العظيمة ، وطمس مساهمتهم الأساسية فى الحضارة الأوربية حين كانت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى وجهالتها ، وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون ، أشد مايغبن حقهم من يكتفى بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم العربى بعد ما حفظوه من الدمار .

فذلك يعنى فى الواقع التقليل من قيمتهم والسكوت عن الأمور الجوهرية فى عملهم الحضارى وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير .

والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الإقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب مدموغة بأثارهم ، إن قواميس اللغات الأوربيـــة تضج بالكلمات العربية ، سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الأقيسة أو العقاقير . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها واصطلاحاتها .

وكان العرب يعرفون النجوم وحركاتها ويفهمونها أعظم من الأغريق والرومان ويسمونها بأسمائها ويجمعونها فى تركيبات تمثل مشاهد حياتهم اليومية .

وكان العرب يسعون إلى اكتشاف الجواب الوحيد على أية مسألة معينة ولا يكتفون من أجل ذلك بمشاهدة واحدة أو عشر مشاهدات ، بل يقومون بالمئات منها ، وقد حسنوا دون انقطاع ما يملكون أدوات من أدوات المشاهدة وبذلوا عناية أعظم فى استقصاء السماء بحيث توصلوا إلى اكتشافات لاحصر لها . منها تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم بصورة متزايدة الدقة .

لقد كان النور الذى أحدثته الشرارات المنطلقة من العبقرية العربية فائقا للغاية . ولعل الطب هو أهم مجالات التفوق العربى .

فى تلك الأيام كان منح البركة والتعاويذ والصلوات هى أساليب العلاج الرئيسية التى يطبقها أطباء الغرب فى سبيل تخليص الشر من أدوائهم الجسدية .

إن مآثر العرب الخالدة لتقدم فى تطورهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية وأن العرب هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمى .

فقد كانوا أول من جعــــل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص للعام وأصبحت الطريقة الاستقرائيـــة هى الطريقة العلمية الأساسية .

إن الفكر الغربي لم يستيقظ من ذلك الحذر الذى أثقل عليه طوال قرون بل طوال ألف عام ويفرد جناحيه لكى يطير إلا بعدما امتلك المعجزات العربية فى ميادين التقنية والإدارية ، ثم تبنى هذه المعجزات المستوى الحضارى"[1].

هذا بعض ما شهد به المنصفون من أن فلاسفة الاسلام أبدعوا [illegible] وعلموا الدنيا قاطبة .

والفضل ـ كما يقال ـ ما شهد به الأعداء

هذا وبالله التوفيـــق ؟

---

(١) انظر ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ من قضايا العصر فى الاسلام ـ أنور الجندى

مراجع الكتاب

مرتبة حسب ورودها على صفحات البحث

المراجع

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ القرآن الكريم	
٢ ـ المعرفة عند مفكرى المسلمين	د/ محمد غلاب
٣ ـ الفلسفة الاغريقية	« «
٤ ـ فى الفلسفة الإسلامية	د/ محمد نصار
٥ ـ معالم الفلسفة الإسلامية	محمد جواد مغنيه
٦ ـ تاريخ الفلسفة العربية	حنا الفاخورى وآخر
٧ ـ من الفلسفة اليونانيـــة إلى الفلسفة الإسلامية	د/ محمد عبد الرحمن مرحبا
٨ ـ مدخل جديد إلى الفلسفة	د/ عبد الرحمن بدوى
٩ ـ التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية	« «
١٠ ـ مشكلة الفلسفة	د/ زكريا إبراهيم
١١ ـ مشكلة الإنسان	« «
١٢ ـ مقال عن المنهج	ديكارت
١٣ ـ مبادىء الفلسفة	ترجمة عثمان أمين
١٤ ـ الفلسفة فى الوطن العربى المعاصر	بحوث لبعض المفكرين
١٥ ـ أفلاطون	د/ الأهوانى
١٦ ـ تمهيد لتاريخ الفلسفة	الشيخ مصطفى عبد الرازق

اسم الكتاب	المؤلف
١٧ – مدخل إلى الفلسفة	د / إمام عبد الفتاح
١٨ – تمهيد الفلسفة	د / محمود زقزوق
١٩ – مشكلات فلسفية	إبراهيم اللبان وآخرون
٢٠ – التفكير الفلسفي في الإسلام	د / عبد الحليم محمود
٢١ – التعريفات	الجرجاني
٢٢ – دروس في الفلسفة التوجيهية	إبراهيم مدكور ويوسف كرم
٢٣ – في الفلسفة الإسلامية	د / محمد كمال جعفر
٢٤ – في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه	د / إبراهيم مدكور
٢٥ – الجانب الإلهي من التفكير الفلسفي	د / محمد البهي
٢٦ – المقدمه	لابن خلدون
٢٧ – طبقات الأمم	صاعد الأندلسي
٢٨ – فجر الإسلام	أحمد أمين
٢٩ – دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية	عبده الشمالي
٣٠ – تاريخ الفلسفة في الإسلام	ديبور ترجمة أبو ريده
٣١ – المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية	ليون جوتييه ترجمة د/ محمد يوسف موسى
٣٢ – تاريخ الفلسفة الغربية	برتراندراسل
٣٣ – علم الاجتماع ومدارسه	د / مصطفى الخشاب
٣٤ – الفلسفة في الاسلام	د / عرفات عبد الحميد

اسم الكتاب	المؤلف
٣٥ - الفلسفة الاسلامية ومركزها فى الفكر الانسانى	خالد سو ريتشارد ترجمة محمد توفيق حسين
٣٦ - محاضرات فى الفلسفة الاسلامية	د/ يحيى هويدى
٣٧ - الملل والنحل	الشهرستانى
٣٨ - تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام	د/ محمد على أبو ريان
٣٩ - الفلسفة ومباحثها	« « « «
٤٠ - الحور العين	أبو سعيد نشون تحقيق / كمال مصطفى
٤١ - تاريخ الفلسفة اليونانية	يوسف كرم
٤٢ - السيرة النبوية	لابن هشام
٤٣ - قصة الفلسفة اليونانية	أحمد أمين
٤٤ - نظرات فى فلسفة العرب	حيدر عبد النور
٤٥ - فتوح البلدان	للبرازدى
٤٦ - الأدب الجاهلى	د/ طه حسين
٤٧ - المدخل إلى الفكر الفلسفى عند العرب	د/ جعفر آل ياسين
٤٨ - التفكير الفلسفى فى الإسلام	سليمان دنيا
٤٩ - الفلسفة الإسلامية	د/ عوض الله حجازى
٥٠ - مذاهب فكرية معاصرة	الأستاذ/ محمد قطب
٥١ - شرح الاقتصاد فى الاعتقاد	د/ قنديل محمد قنديل
٥١ - الفلسفة الحديثة فى الميزان	د/ محمد بن فتح الله بدران

اسم الكتاب	المؤلف
٥٣ ـ المواقف	لعضد الدين الإيجي
٥٤ ـ الفلسفة الاغريقية	د/ محمد غلاب
٥٥ ـ القرآن والفلسفة	د/ محمد يوسف موسى
٥٦ ـ رسالة التوحيد	للإمام محمد عبده
٥٧ ـ بين الحضارات والديانات	الأستاذ/ طه سرور
٥٨ ـ الفلسفة القرآنية	للعقاد
٥٩ ـ تهافت الفلاسفة	للغزالى
٦٠ ـ المنقذ من الضلال	للغزالى
٦١ ـ صون المنطق	للسيوطى
٦٢ ـ الرد على المنطقيين	لابن تيمية
٦٣ ـ مناهج البحث عند مفكرى الإسلام	على سامى النشار
٦٤ ـ منطق الشرقيين	لابن سينا
٦٥ ـ منهج البحث العلمى عند العرب	د/ جلال موسى
٦٦ ـ دراسات فى الفلسفة الإسلامية	د/ عبد اللطيف العبد
٦٧ ـ المنطق الحديث ومناهج البحث	د/ محمود قاسم
٦٨ ـ فلسفة اللذة والألم	اسماعيل مظهر
٦٩ ـ الفلسفة ومباحثها	د/ محمد على أبو ريان
٧٠ ـ تاريخ العلم	د/ عبد الحليم منتصر
٧١ ـ وسائل الكندي	لأبو ريده
٧٢ ـ قضايا العصر فى ضوء الإسلام	أنور الجندى

الخطأ والصواب

رقم الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	١٢	وتحيل الحياة	وتخيل الحياة
١٩	٥	الأنسان لم	الانسان الذى لم
١٩	١٨	فيلسوف	فالفيلسوف
٢١	١٧	أن الوظيفة	إن الوظيفة
٢٣	١٣	أنه لا مجا	إنه لا مجال
٢٣	١٤	التاريخ الحصارى	التاريخ الحضارى
٢٣	١٩	حين تصوع	حين تصوغ
٢٦	١٠	الزائد	الرائد
٢٧	١٩	يبن	يفى
٢٨	١	وإن توقف	فإن توخت
٢٨	٩	كان أن يميلوا	كأن يميلوا
٤٣	١٤	أوله ما تفلسفت	أوله ما تفلسف
٤٤	٥	طلب	طلباً
٤٨	١٤	مصارها	مصادرها
٤٨	١٧	من دائرة	وفى دائرة
٤٨	١٩	وفى فن	ومن فن
٦٠	٢	الترلد	التولد
٦٢	١٦	تقديم	وتقديم
٦٥	١	الخصبه	الخطبة
٦٦	١٤	الفبوة	النبوة
٦٧	٢	الحق المعين	الحور العين
٦٧	٤	الحس	الحدس
٨٠	١٢	مضمون	مصمون

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٥٤٠٤/ ١٩٨٧